

على درب الإسلام



على ذكر الأيام

عبد الله كنون





32 – 34 شارع فكتور هيكو
الهاتف 30.23.75 / 30.76.44
ص ب 4038 الدار البيضاء المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله

الطبعة الثانية 1403 – 1983

المقدمة

يحتاج الشباب وكثير من المتعلمين عندنا ، إلى توعية اسلامية شاملة ، إزاء هذه التيارات الفكرية المتعارضة مع حقائق الايمان وشعائر الدين ، فكل يوم تحدث بدعة تستدرج الناس إلى الخروج عما ألفوه من قواعد السلوك والاخلاق أو تشككهم في معتقداتهم وأحكام دينهم ، ومن لم يكن مسلحا بثقافة اسلامية متينة ، لا يعرف كيف يتفصّى من الشبه والفتن التي تعرض له ، فيبقَى حائرا ينطوي على دخيلة يخشَى من اظهارها .

ومدارسنا لا تزود تلاميذها بحصيلة من المعلومات الدينية تقيهم العثرات فهم أول من يقع بين ضحايا تلك التيارات .. وجمهورنا الذي كان يتوفر على قدز صالح من المعرفة بعزائم الاسلام ورغائبه مما يتلقاه من دروس الوعظ والارشاد الراتبة في المساجد ، وخصوصا في بعض المدن كفاس التي قيل فيها ان عامتها اذكر لمسائل العلم من علماء غيرها ، هذا الجمهور فقد العلماء الاعلام الذين كانوا يعمرون المساجد بمجالسهم الحافلة فعدم الهادي المنقذ من الضلال ، فكيف تجده وقد غمرته الترهات والأباطيل ؟

انه ما أخذ الله على الجهال ان يتعلموا ، حتَّى أخذ على العلماء أن يعلموا . والتعليم في هذا العصر من أعظم المشكلات فهو سلاح ذو حدين ، ربما كان ضرره أكثر من نفعه إذا لم يحسن استعماله . وإذا كان بعض الاطباء يغلطون أحيانا فيشيرون على مرضاهم بما يزيد علتهم تفاقما ، فان كثيرا من المعلمين لا يقدرون مهمتهم ويفسدون أكثر مما يصلحون !

ولعل ما ينقص هؤلاء المعلمين هو فن العرض والتلقين لا المعلومات والمسائل ، فعندما تقوم الوساوس في نفس السائل يكون المطلوب هو كيفية استلالها لا تغذيتها بما يزيدها استفحالا . وبعض العلماء هذا سبيلهم ، وهو ان يأتيهم المستفيد بمشكل يحاول حله ، فيصدر عنهم وقد اضاف إليه مشاكل أخرى .

ونحن فيما نعالجه من مسائل تجلية الفكر الديني وتثبيت الايمان في القلوب واثارة الحماس للعقيدة واعلاء منار الاسلام ، نعرض لقضايا عامة من أكثر ما يهجس في نفوس شبابنا وعامة مثقفينا ، مما يتعلق بالاسلام عقيدة وشريعة ونظاما اجتماعيا وقانونا خلقيا ، فنبسطها أحسن البسط معتمدين العقلانية والوضوح من غير ان نتعمق في التفاصيل لنخرج بنتيجة ايجابية هي محو الشبهة ودحض الشك في أصل المسألة .. وهذا هو الدرب الذي سار عليه الاسلام في الدعوة إلى الله والهداية إلى صراطه المستقيم ، سواء في القرآن الكريم أو السنة النبوية . وقد تكون المسألة مما يقتضي شرحها كتابا مطولا ، ولكن عرضها بهذه

الطريقة ، ولا سيما لمن يكتفي بما يجلو الغين عن قلبه . اقرب إلى التفهم وادعَى إلى الرسوخ في الذهن .

ولسنا نقول غير ما يقوله ذلك العالم المتشدد ولا نخالف النصوص الثابتة والمذاهب الراجحة وانما نتلطف في القول عملا بما يرشد إليه الكتاب العزيز : في الآية الكريمة «وقولوا للناس حسنا» ونخاطب كلا بما يناسبه امتثالا للأمر الذي جاء في الحديث الشريف (حدثوا الناس بما يفهمون ، اتحبون ان يُكَذَّبَ الله ورسوله ؟) .

ونزيد فنحمل الناس على أحسن المحامل مستأنسين بقول الامام مالك وقد سئل عن القدرية أَكُفارٌ هم ؟ فأجاب : من الكفر فروا .

وما عدا ذلك مما في هذا الكتاب ، فهو تنوير وتذكير ، وترغيب في المعرفة وحض على النظر . وهو في الاسلام من أول الواجبات أو أولها على الاطلاق .

والله المسؤول ان يتولّى رشدنا وينفعنا وسائر المسلمين بالعلم انه سميع مجيب .



هؤلاء أسلموا

لم يزل نور الاسلام منذ انبثاق فجر دعوته يضيئ الاغوار والنجود ، ويتغلغل في خفايا النفس البشرية فيهديها سواء الطريق ، وان حال الضالون المضلون بينه وبين الانتشار بكل ما في وسعهم من طاقة وجهد ، وضربوا دونه حجبا وأستاراً من التقول عليه والبهتان كما أخبر بذلك الكتاب العزيز حين قال : «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون» .

ونورد هنا قصص بعض المسلمين الأجانب الذين لقيناهم أو باشرنا اسلامهم تصديقا لهذا القول وتثبيتا لمن ألقَى السمع إلى هذا الحديث :

ففي سنة 1936 إذ كنا نجمع التبرعات لفلسطين الشهيدة جاءني انكليزي مسلم وقال لي سمعت بحركتكم هذه فأحببت المشاركة فيها بصفتي مسلما ولكني أريد أن لا تذكروا اسمي نظرا لجنسيتي الانكليزية ، واعطاني

جنيهين انكليزيين ، وقد علمت منه أنه أسلم على يد جماعة من المبشرين الهنود وانه سمي باسم حافظ الله . فلاحظت على ما في اسمه هذا من الايهام فأبدله بمحفوظ الله وسر بذلك غاية السرور .

وهذه سيدة اميريكية ، قدمها إلي صديقي الاستاذ الحسن بوعياد برسالة توصية وقالت لي انها لما اختارت الاقامة في طنجة أحبت أن يكون لها مرشد ديني ترجع إليه فيما يعرض لها من مشاكل ، واسمها الأصلي مسز استرلينك وقد سمت نفسها بالعربية هانم سالم ، وطوال مدة اقامتها بطنجة كانت تتصل بي وأتدخل في حل مشاكلها الخاصة وأجيبها على بعض المسائل الدينية التي توجهها إلي تارة بالمشافهة وأخرى بالكتابة ، والغريب في أمر هذه السيدة هو ما حصل لها بعد سفرها إلى أميركا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وذلك أنها استدعيت من القنصلية العامة للرجوع إلى وطنها بقصد الخدمة الوطنية لكونها وضعت نفسها تحت تصرف حكومتها منذ شروع اميركا في الاستعداد للدخول في الحرب ، وقد ودعتني بتأثر عظيم وأودعتني نسخة من وصيتها وغابت في بلادها نحو أربع سنوات ، ولما عادت إلى طنجة جاءت لزيارتي وأخبرتني بماجريات أحوالها وأهم ذلك أنها اتصلت

بالشيخ خليل الرواف وهو عالم من العربية السعودية يقوم بنشاط اسلامي في نيويورك ونشر ترجمة مفسرة للقرآن الكريم بالاشتراك مع غيره من المتضلعين في اللغة الانكليزية كانت جريدة «البيان» التي تصدر بالعربية في واشنطن تعلن عنها مدة طويلة ، فأقرأها هذا الشيخ القرآن الكريم في بضع ختمات وصارت بحيث تستطيع قراءته في المصحف بغاية السهولة ، هذا مع العلم بانها قبل سفرها إلى اميركا لم تكن تعرف من العربية الا كلمات قليلة ، وكانت تنطقها بكل صعوبة ، وكذلك الأمر بعد رجوعها فانها لم تتقدم في هذا الصدد تقدما محسوسا ولكنها بالنسبة إلى قراءة القرآن خاصة جاءت بالعجب .

وأردت اختبارها فطلبت مني مصحفا شرقيا فقدمته لها فأخرجت من حقيبة يدها منديلا غطت به شعر رأسها وطلبت مني منديلا آخر وضعته على ركبتيها وساقيها وسألتني من أين تبدأ فعينت لها سورة البقرة ، فافتتحت بالتعوذ والبسملة وشرعت تقرأ في ترتيل كأحد القراء الشرقيين تماما لا تميزها عنهم الا لكنة العجمة التي لم تنفك عنها ، وبعد قراءة ما تيسر من سورة البقرة نقلتها إلى سورة مريم فقرأت أيضا بكل سهولة ، ثم نقلتها إلى سورة يس فقالت انها تحفظها وقرأتها من حفظها كما قالت ، وكذا فعلت بالنسبة إلى سورة تبارك والسور

القصار ، وذلك بمحضر أهل بيتنا الذين يعرفونها قبل السفر والذين لم يكونوا يتفاهمون معها إلا بمشقة ، فلم يملكوا أنفسهم من العجب حينما رأوا منها هذا الفتح المبين .

وهذا اميريكي كان قنصلا عاما لبلاده في برشلونة وأحيل على المعاش في اعقاب سنة 1939 لقيته في بيت احدَى الاسر الانجليزية المقيمة بطنجة ، وقد استدعتني تلك الاسرة الصديقة لربط صلة التعارف بيني وبينه ، وأخبرني انه أسلم عن اقتناع بصحة الدين الاسلامي بعد دراسة طويلة ، وانه سعيد باهتدائه إلى معرفة الحق في خريف عمره . وانما الذي يقض جنبه هو أمر ولدين له ، بنت في الحادية عشرة من عمرها وولد في التاسعة . يوجدان باحدَى المؤسسات التربوية الامِريكية لموت أمهما وهو يريد أن يلقنهما العقيدة الاسلامية وينشئهما في احدَى البلاد التي تدين بالاسلام ، بل يريد أن يودعهما في بيت احدَى الأسر الاسلامية لينقلا الاخلاق والفضائل التي أتَى بها الاسلام بالعمل والقدوة فيشبان على ذلك ، ويموت هو قرير العين باهتداء ولديه إلى طريق النور . ثم قال لي انه بناء على المعلومات التي استفادها من الاسرة الانجليزية مضيفتنا ، قد وجد ذلك البيت الاسلامي

المنشود وهو بيتي ، فهل له أن يتقدم إلي بطلب ايواء ولديه عندي والقيام على تربيتهما تربية اسلامية حتَّى يبلغا رشدهما ويحقق هو أمنيته ؟.. وأكدت الأسرة المشار إليها قوله ، وقالوا لقد حدثناه عنك طويلا ونحن معه في رجاء ان تلبي طلبه .. فقلت انه لا مانع عندي من الاستجابة لهذه الرغبة النبيلة بل انني اعدها من سعادتي وسعادة أسرتي التي ستقدم في آن واحد خدمة ترضي بها الله وترضيكم جميعا بصفتكم أصدقاء . ولكن الأمر جد ينبغي التدبر في عواقبه وما يحيط به من ظروف وملابسات ، فقال الوالد الشفوق : لا تهتم بشيء فقد دبرت الأمر على أحسن ما يرام وذكر لي انه سيودع باحد المصارف المالية رصيدا مهما يخصصه للنفقة على ولديه وكسوتهما وجميع لوازمهما ، وانه سيكلف الاسرة الصديقة بالتعاون معي على كل ما يهم ولديه من الناحية المادية ، فقلت ان الأمر لا يتعلق بالمادة فقط ، فان هناك ما هو أهم كمسألة الثقافة وضمان مستقبل الولدين . فقال اما البنت فإني أريد أن تعيش في بيتك كما تعيش بناتكم وان تزوجها إذا أدركت بنظرك لشاب مسلم كما تزوجون بناتكم . واما الولد فادخله مدرستك ونشئه كما تنشئ أولادكم حتَّى إذا بلغ سن الرشد فليذهب انى شاء ، وانما المهم عندي ان ينشأ مسلما صحيح العقيدة وهذا هو

المستقبل الذي تضمنه له . قلت انك رجل ذو ثقافة عالية وبها اهتديت إلى أن الدين الصحيح هو الاسلام ، فولدك لابد أن يكون مثلك ، ومدرستي لا تؤهل لشهادة علمية فماذا يكون مصيره كمواطن اميريكي ؟ قال ان واجبه الوطني لابد أن يؤديه ، والعبرة بالعمل لا بالعلم ، وكم من أشخاص ذوي درجات علمية كبيرة ولكن علمهم لم يفدهم شيئا في خلاص روحهم ، وعلى كل حال فانك بمعونة أصدقائنا تدبر أمر تثقيف ولدي بعد تربيته الدينية كما يجب ، وعلى الوجه الذي تراه خيرا له . وانفصلنا على هذا الرأي وذهب هو لأميريكا بقصد احضار ولديه ، ولم يجد في الأمر شيء الا أنه في فاتح سنة 1940 وصلتني منه برقية تهنئة بالعام الجديد ولم تكن تحمل عنوانا ثم عمي علي وعلى أصدقائنا المذكورين خبره بعد ذلك .

وفي الشهور الثلاثة الأولى من سنة 1950 أسلم بطنجة أربعة أشخاص هم الطبيب الفرنسي السيد روني شوَى المولود سنة 1906 الموظف بالمستشفَى البلدي بهذه المدينة وأشهد على نفسه أنه اعتنق الدين الاسلامي الحنيف عن رغبة صادقة بعد دراسة واقتناع بصدق دعوته ، واختار لنفسه اسم محمد حسن والسيد بويتي لويجي الايطالي الجنسية المولود سنة 1898 واسمَى نفسه

محمد سعيد ، والسيدة أونيطة خوان طبيرو من مدينة جيان باسبانيا وسميت بعائشة ، والسيد لويسي منطوفاني السويسري الأصل وسمَّى نفسه عبد الله ، على أن هذا الأخير انما جدد اسلامه بطنجة وقد تقدم له أن أسلم بالمركز الثقافي الاسلامي بلندن في سنة 1949 .

وفي الشهور الثلاثة الأولى أيضا من سنة 1951 أسلم بطنجة الاشخاص الآتية اسماؤهم :

السيد روبير بيانكي الفرنسي الجنسية وهو من مدينة شافري بالسافوى عمره 37 سنة وحرفته تاجر وقد تسمَّى بمحمد بيانكي وتزوج من سيدة مسلمة ايم ذات أولاد فرعاهم رعاية حسنة ، ولما جاء عهد الاستقلال توظف بالأمن الوطني ووفق إلى القاء القبض على عصابة تهريب خطرة ومات بعد ذلك .

والسيد كريستودور دي من اليونان وتسمى محمد الهادي .

والسيد فوان السويسري التبعية من 32 سنة وسمي محمد السعيد .

والسيد ريدز مبيوني فارسيو الايطالي الجنسية من مدينة جنوة عمره 31 سنة وسمي عمر .

والسيد اميليو هرنانديس دي كاستيو اسباني التبعية من مدريد عمره 38 سنة ودعي أحمد . والسيدة ميلندة نهاونهار من الارجنتين عمرها 30 سنة وقد تزوجت بالسيد عبد السلام القلعي وتسمت بالسعدية .

وكل هؤلاء من طبقة متوسطة سواء في الناحية المادية أو الأدبية ، وكلهم يعزو سبب اسلامه إلى الطمأنينة الروحية التي يجدها في الاسلام وما كان يتخبط فيه من أزمة عقدية لا يجد لها حلا وقد قال لنا أحدهم إنه أسلم لبساطة الشعائر الجنائزية عند المسلمين ، ولأنه ليس في نظام الدفن الاسلامي ورقة مرور يجب الحصول عليها من الرئيس الديني مقابل مبلغ من المال . وقال آخر انه أسلم تفاديا من الفضائح الخلقية التي تتمرغ فيها الأسر غير المسلمة وهو يريد أن يبني أسرة نقية طاهرة إلى غير ذلك من الأسباب .

وكان بعض هؤلاء يحرص على اثبات اسلامه لدَى المحكمة الشرعية ، وبعضهم يكتفي بأن يلقن الشهادة ويعرف بواجباته الدينية ، ويدل على بعض الكتب التي ترشده في حياته الروحية الجديدة بلغته ولا سيما ترجمة القرآن .. وإذا كان مقيما عندنا عقدنا بينه وبين أحد المسلمين من طبقته صداقة تجعله دائما يعيش في جو اسلامي نظيف .

على أن الصعوبة التي كانت تواجه هؤلاء المسلمين الجدد هي الاجراءات الشرعية التي يحرص عليها أكثرهم وهذه الاجراءات كانت تصطدم بمنشور الصدارة العظمَى الذي يوجب على القضاة أن لا يبتوا في اسلام أي أجنبي الا بعد اعلام هذه الصدارة واذنها بذلك .. ومن الانصاف الاعتراف بأنه في مدة قضاء صديقنا المرحوم السيد محمد ابن رحمون كثيرا ما وقع التغاضي عن هذا المنشور وعدم العمل به لأن ابن رحمون كان رجلا جريئا وكان يأوي إلى ركن شديد فلم يتقيد مطلقا بتعليمات الصدارة في هذا الصدد .. ولما بلغ الأمر إلى علم المراقب الفرنسي وجه إليه نسخة من المنشور المذكور ملفتا نظره إلى وجوب الوقوف عنده ، فأعلمني بذلك فتطوعت أنا بنقده وكتبت في ذلك مقالا نشرته بمجلة «لسان الدين» مبينا بطلانه من الوجهة القانونية والدينية .

وفي سنة 1952 اعتنقت السيدة ايمي بولين بكنانس السويسرية الأصل الديانة الاسلامية وشهدت شهادة الحق ، ودخلت في الاسرة المحمدية بغبطة تامة ، وهي سيدة نصف كانت تدين قبل بالبروتستانية وعكفت على دراسة الاسلام وقرأت القرآن مرارا في ترجمته الفرنسية لمسيو بلاشير فانبثق نور الهداية في قلبها ولما سألناها عن

أهم ما حببها في الاسلام قالت مساواته في الحقوق بين أتباعه واعتباره للدنيا كاعتباره للدين ، وهي على جانب مهم من الثقافة ، ولها ابن صغير كانت تهيئه للإسلام عن اقتناع ، وكانت تشتغل كاتبة في البنك السويسري الطنجي .

وكذلك اعتنق الاسلام في هذه السنة بطنجة الشاب المهذب السيد برسون أوجين السويسري الجنسية أيضا والموظف بالبنك المذكور وعمره 24 سنة وقد قال انه منذ أن كان تلميذا بالمدرسة وهو يبحث مسألة الأديان ويقارن بينها حتَّى اهتدَى إلى أن الدين الاسلامي هو الذي يكفل طمأنينة النفس والعقل للمتدينين به ، فعزم على اعتناقه ، ومن جملة الاديان التي درسها البودية ولكنه لم يجد فيها ما يحقق له مرغوبه ، وكان في الأصل بروتستاني العقيدة .

وفي سنة 1954 اعتنق الاسلام بتطوان في طريقه إلى وطنه أمريكا السيد ريتشارد . ا. جست ، وتخير لنفسه من الاسماء الاسلامية اسم أرسلان الأمين ، وهو من مواليد هوسطون بولاية تيكساس وعمره 35 سنة ويعمل في الشركة العربية الاميريكية للبترول – أرامكو– بصفته خبيرا فنيا وقد درس الاسلام في القرآن الكريم ترجمة

مرجليوت المستشرق الانجليزي المعروف وفي كتاب الاسلام لصديقنا الدكتور خير الله أبي علي وهو كتاب وضعه بالانجليزية لمن يريد التعرف للدين الحنيف وشعائره السمحة، وأخرجه اخراجا فنيا أنيقا مُخلّلا بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المكتوبة بخط عربي جميل مع ترجمتها وكتابتها بالحروف اللاتينية أيضا لتسهيل نطقها على القارئ الاجنبي ، وفي مذاكرتنا مع أرسلان تطرقنا للحديث عن سيدنا عيسَى عليه السلام والعقيدة الاسلامية فيه ، وأنه يتميز من بين الانبياء بوصفي كلمة الله وروح الله . فقال ان هذا التمييز قد يجر من لا علم عنده بالاستعمالات المجازية للألفاظ إلى العقيدة المسيحية فيه . ونحن كنا نريد أن نستثبت من عقيدة التوحيد عند الرجل فإذا به تيقنها تيقنا . فقلنا للترجمان كف عنه .

وهذه المسألة كثيرا ما شرحناها لغيره من النصارَى الذين أسلموا وقصدنا التلطف ببيان اعتبار الاسلام للمسيح عليه السلام فما رأينا منهم من استنكرها كهذا المومن القوي .

وقد أخبرنا أنه أراد أن يعلن اسلامه في طنجة فأبت عليه المحكمة الشرعية تقيدا بالمنشور المذكور آنفا ، وكان ابن رحمون قد أخر عن القضاء انتقاما منه ، فأرشده

اخواننا هناك إلى أن يقدم إلى تطوان ويتصل بي ، وكنت إذ ذاك لاجئا بهذه المدينة في الأزمة السياسية المعروفة . فجاء إلى تطوان وصحبته أحد الأدلاء من طنجة وبحث عني فلم يتصل بي إلا فيما بعد العصر ، وكان يريد اثبات اسلامه لدَى المحكمة الشرعية واتخاذ كافة الاجراءات في ذلك اليوم نفسه والرجوع إلى طنجة لارتباطه بموعد سفر الباخرة منها صباح غده .. فيسر الله ذلك كله ، وأخذ حجته الشرعية بيده ، ولم يكن لي إذ ذاك أي وصف ولا نفوذ يسهل لي الحصول على هذا المرام بتلك السرعة ولكن لطف أهل تطوان تكفل بتذليل كل العقبات ، فحضر لدي العدلان السيد محمد الزرهوني والسيد محمد الحداد وكتبا الوثيقة بخط جميل لا أذكر الآن من كتبها منهما وان كان كل منهما جميل الخط وحضر خليفة القاضي السيد عبد الرحمن الازمي فأداها وختمها بطابعه وجعل لها رقما تقديريا لادخالها إلى الكناش بعد ، إذ كانت المحكمة إذ ذاك مغلقة ، كما حضر السيد عبد الكريم بنونة لاعانتنا على الترجمة إذ كان الدليل لا يحسن ان يؤدي كل الكلمات التي تدخل في صميم العقيدة وفلسفة الاسلام والسيد أرسلان لا يحسن من اللغات إلا الانجليزية وهكذا قامت بربها الأشياء .

ان اسلام هؤلاء السادة والسيدات ، وهم أفراد

عديدون من طبقات مختلفة ، وجنسيات متعددة ، وتلاقيهم على الاسلام في فترة قصيرة ، بمدينة صغيرة كطنجة ، له مغزًى عميق ودلالة قوية على أن الاسلام يسير بخطًى ثابتة نحو الغاية التي عبر عنها كاتب الانجليز الشهير برنارد شو بقوله : «ان الاسلام هو دين المستقبل» وما ذلك إلا تفسير حديث لقوله تعالى : «والله متم نوره ولو كره الكافرون» نعم ان كان هذا عدد من أسلم في مدة قصيرة في بلدة صغيرة وفي علم كاتب الحروف ، فكم يكون عدد من يسلم في عواصم الدنيا والمدن الكبرَى والصغرَى أيضا في جميع أطراف العالم في مثل تلك المدة ؟

ان انسلاخ فرد واحد ، فضلا عن أفراد ، من دينه الذي وجد عليه آباءه وقومه واعتناقه لدين آخر وهو واع أشد الوعي لما يفعل ، لكونه في مستوًى ثقافي لا باس به بل ربما كان مستوًى ممتازا ، انما هو دليل قاطع على سمو هذا الدين وقوة روحانيته التي تغزو جميع القلوب والعقول ، ومن هنا نعلم لماذا يسلم هؤلاء ؟

والواقع أن أزمة نفسانية مزمنة تسيطر على العموم في أوربا وامريكا وتأخذ بمخنق الرجل والمرأة والشاب على السواء ، نتيجة سيطرة المادة التي لا ترحم على مرافق الحياة والتسابق في ميدان القهر والغلبة المفضي إلى تسخير

الجماهير الشعبية لاغراض الرؤساء والحكام الذين لا يؤمنون الا بالقوة ، ولو كان فيها تدمير المعمور وخراب العالم ، مما لا تعزية معه الا باللجوء إلى التدين والالقاء باليد أمام خالق الكون ومدبره ومالك جميع القوَى والقدر عساه ينقذ البشرية من هذه الويلات ويمنحها الأمن والسعادة والهناء .

وما لا جدال فيه هو أن القوم لا يجدون في المسيحية التي بأيديهم شفاء ما بأنفسهم من علة ، لانحرافها عن الاتجاه الحنيف الذي كانت عليه أولا ، ولذلك جاء الاسلام مجددا لدعوة الحق ، مصححا للوضع الديني كما أرادته العناية الربانية ، فلا محيد لهم إذا عن الدخول في كنفه الذي هو كنف الله ، والاستمساك بعروته الوثقَى التي لا انفصام لها ، ولا أدل على هذا من قضية اسلام السيدة هينكليف التي نختم بها هذا الموضوع ، وهي سيدة هولاندية مثقفة ثقافة عالية ، تتقن عدة لغات ، وتولت مختلف الاعمال ، وكانت في الأخير كاتبة لمحكمة نومبرك الدولية التي انعقدت فيما بعد الحرب العالمية الثانية لمحاكمة مجرمي هذه الحرب ، ان هذه السيدة رأت كثيرا من مشاهد الحرب المدمرة وعواقبها الوخيمة . واطلعت على كثير من أسرارها وأعمال أقطابها ، ثم رأت مصير عدد كبير من المسؤولين والمتحكمين الذي لم يكن يخطر ببال ،

وعرفت أيضا نيات كثير من الذين أدانوهم والدوافع التي كانت تحركهم لاصدار الاحكام المختلفة على المنهزمين الذين ساقهم سوء الطالع إلى قفص الاتهام ، إلى غير ذلك مما تحكيه وما تحتفظ به ، انها لم تجد أمامها وسيلة لمعالجة ما أصيبت به من نكسة ضمير وخيبة أمل إلا الرجوع إلى الله والا صهر نفسها في بوتقة الاسلام ، دين الرحمة والحق والعدالة .

ولقد شرفتني بزيارتها في يوم عيد الفطر من سنة 1378 والزوار يتواردون لتبادل التهاني ، والنفوس راضية والقلوب مبتهجة ، وكان برفقتها السيد محمد بن العربي جسوس فأعلنت اسلامها في تأثر بالغ وأعربت عن سعادتها بالدخول في حظيرة المومنين بهذا الدين الشريف ، وكأن الاحتفال بالعيد كان احتفالا بانخراطها في سلك الاسرة الاسلامية الكبيرة وكأن الاخوان الذين حضروا تلك المناسبة الفريدة كانوا على ميعاد لرؤية مشهد عظيم في عموم رسالة الاسلام وخلودها .

*

اسلام رائد

لئن كانت هذه الآية الكريمة «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا» التي نزلت على النبي ﷺ وهو بعرفات في حجة الوداع ، تدل بمنطوقها على أن الدين قد كمل ، وأن أحكامه قد استوفيت ، فهي بمنطوقها ومفهومها معا تدل على أن هذا الدين تام وانه كفيل بمصلحة العباد بحيث ارتضاه الله لهم طريقة للعمل ومنهاجا للحياة . ولذلك قال الامام مالك رضي الله عنه فيما رواه عنه ابن الماجشون كما في الاعتصام للشاطبي «من ابتدع في الاسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة ، لأن الله يقول «اليوم أكملت لكم دينكم» فما لم يكن يومئذ دينا فلا يكون اليوم دينا» .

وانطلاقا من هذه النقطة عمل علماؤنا رحمهم الله على دفع الشبه ورد البدع التي تشوه جمال الدين وتعكر

صفو مشربه منذ العهد الأول إلى عهدنا هذا . فما من دعوة منحرفة ترمي إلى زعزعة عقيدة التوحيد أو بث البلبلة في نفوس المومنين بشأن مسلمات دينهم أو نشر الفساد في المجتمع الاسلامي الطاهر أو تغيير الشريعة التي هي مناط الحكم بينهم ، يكتب لها أن تظهر ويحاول اصحابها تدعيمها بمختلف الوسائل من تبشير أو جدل أو مساندة قوة ثائرة أو حاكمة ، الا قضِي عليها ولقيت مصيرها بفضل العلماء الاعلام الذين وقفوا سدا منيعا في وجه كل ضال مضل ، وخارج متعنت أبى الانقياد إلى السنة والجماعة ولم يبغها الا عوجا . فكان موقف سيدنا علي رضي الله عنه من الخوارج الذين أرادوا تبديل نظام الحكم الاسلامي الذي سار عليه الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، موقفا واضحا لا غبار عليه بحيث لم يستطع أحد ممن جاء بعده من الحكام وقادة الفكر الاسلامي أن يخالفه ويستحسن شيأً من أمرهم، حتَّى ان من تسرب منهم إلى بلاد المغرب لم يلق الا المقاومة . ولم يجد ما كان يظنه من تربة خصبة لبذر أفكاره الزائغة ، قصد ضرب مسلمي المشرق بمسلمي المغرب .

وكذلك يقال في الفرق المختلفة التي كانت تشكك المسلمين في عقيدتهم وتحملهم على الأخذ بمذاهب الفلسفة في قدم العالم والتعطيل وما إلى ذلك من نزعات

الحادية ، فان أئمة الدين كانوا لها بالمرصاد فزيفوا أقوالها وأبطلوا مزاعمها حتَّى بقيت دائما قلة لا يؤبه بها وان ساندها بعض الخلفاء والملوك . ولكن الجماهير الاسلامية لما كانت ترَى أمثال الامام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل والبخاري في المشرق ، وعبد الله بن أبي زيد القيرواني وأبي عمران الفاسي وأبي بكر بن العربي والقاضي عياض في المغرب ، يقفون في وجه أولئك الدعاة ويتفانون في الحمية لعقيدة السلف الصالح والنهج على طريقتهم في القول والعمل ، وتنصت إلى كلامهم وتتأمل في حججهم ، كانت تستبين سبيل الرشد وترَى الحق حقا فتتبعه والباطل باطلا فتتجنبه حتَّى أصبح شعارها على مر العصور قول الامام مالك (لن يصلح آخر هذه الأمة الا بما صلح عليه أولها) .

أما طهارة المجتمع الاسلامي من عوامل الفساد والاخلاق الرذيلة والاباحية ، فقد كانت دائما بالقياس إلى غيره من المجتمعات مضرب الامثال . وما ذلك الا من سهر الحكام العادلين وغيرهم على تطبيق أحكام الشريعة وحفظ الحدود وتنفيذ العقوبات الزاجرة على المخالفين المجاهرين المستهترين .. فالحكام العادلون كانوا يقومون بذلك من تلقاء أنفسهم وبوازع من ايمانهم ،

وغيرهم كانوا يقومون به تحت ضغط العلماء الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ولا يغضون الطرف أبدا عما يظهر في الأمة من مظاهر التعفن والانحلال .

على أنه لما ضعف الوازع الديني في العهود الأخيرة واستشرى الفساد الخلقي في جميع أنحاء العالم ، وكان من الطبيعي ان ينال المسلمين من ذلك بعض ما نال غيرهم ، فتوقف تنفيذ الحدود الشرعية في بلاد الاسلام لبواعث اجتماعية واقتصادية ، لم يقل أحد من العلماء بابطال الحدود أصلا واعتبار المخالفات التي تستوجبها جائزة ومسموحا بها . وبذلك صين حكم الشرع ولم ينزلق المسلمون فيما انزلق فيه اتباع الديانات الأخرى من تحليل المحرمات وخلع ربقة الدين بالكلية .

كل ذلك كان مصدره ايمان الخاصة والعامة من المسلمين بكمال دينهم الحنيف وسمو مبادئه وانه يعلو ولا يعلى ، وانه المهيمن على ما سواه من الأديان والفلسفات والمذاهب ، فما وافقه منها كان حقا مقبولا وما خالفه كان باطلا مرفوضا ، فهو الرائد المتبوع وغيره تبع له وسائر في ركابه . الم يقل الله عز وجل في كتابه الحكيم خطابا لنبيه ﷺ «وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من

الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق» ؟ وقال النبي ﷺ بناء على ذلك فيما روته عنه عائشة الصديقية رضي الله عنها وأخرجه البخاري ومسلم (من احدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) أي غير مقبول لأن الدين كامل لا يحتاج إلى زيادة من أحد الا ما كان تفريعا على أصل صحيح أو قياسا على حكم ثابت بشروط معلومة .

وقد استمر الأمر على ما ذكر في العالم الاسلامي كله إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم انهار السد وطغت موجة الالحاد على المعمور ، وكانت الثغرة التي أخذ منها المسلمون هي المنزلة بين المنزلتين ، كما كان المعتزلة يعبرون ، ونعني بها ما أشار له القس زويمر المبشر المعروف ، من أن المسلمين لا يمكن أن يتحولوا عن الاسلام إلى النصرانية مباشرة ولكن بنقلهم من الاسلام إلى الالحاد يمكن أن يطمع في تنصيرهم يوما ما . وجاء هذا من القاء المسلمين بأولادهم إلى المدارس اللادينية والمعلمين الأجانب الذين لا يؤتمنون على عقيدة غير عقيدتهم ان كانوا من المعتقدين ، فكيف إذا كانوا — وهو الغالب — من قبيل ذلك الكاتب الذي كان يوقع كتاباته بهذه العبارة «الكافر بكل دين ، فلان» ؟

انها ضرورة العصر ومساس الحاجة بالمسلمين إلى تعلم العلوم الكونية والتقنية التي كانت سبب تفوق غير المسلمين عليهم واستعمارهم لبلادهم. ولو أن المسلمين كانوا يسلحون ابناءهم بسلاح التربية الدينية ويلقنونهم أصول العقيدة الاسلامية وتاريخ سلفهم العريق في العلم والحضارة، قبل ان يجلسوهم بين أيدي معلمين من دونهم ويبعثوا بهم إلى بلاد أوربا، لقضوا غرضهم من العلوم العصرية وأمنوا على مستقبل أبنائهم، ولم تحصل هذه الهزة العنيفة لكيان الاسلام والحيرة التي تستولي على الغير من اتباعه في كل مكان.

لقد صار الأمر إلى أن الكثير من هؤلاء الشبان الذين علق عليهم أهلهم وذووهم كل أمل في انقاذ البلاد الاسلامية من سيطرة الأجانب المسيحيين والملحدين، تلك السيطرة التي اذلت الاعزاء وانتهكت الحرمات وأفسدت الأخلاق وأشاعت الكفر والفسوق والعصيان، لم يقوموا بأي عمل يعيد إلى الاسلام كرامته، ويرد إليه اعتباره، ويفند مزاعم المتقولين عليه من خصومه الكائدين له، وكل ما يهتمون به ويستبد بنشاطهم هو التمكين للافكار الأجنبية والنفوذ الروحي للمستعمر السابق. فلغته في بعض البلاد تعلو اللغة القومية،

وأساليب التربية والتعليم التي تخرجوا بها على يده ، هي التي اعتمدوها لتخريج الاجيال الطالعة . وبذلك بقيت الحال على ما هي عليه من التنكر لتعاليم الاسلام وماضي الأمة الزاهر حتَّى بعد جلاء المستعمر عن البلاد .

وادهَى ما أصيب به الاسلام في العصر الحاضر من هذا الاستعمار الفكري الوبيل ، هو التحريف والتزوير وتفريغ المثل العليا من معانيها السامية ، مصداقا لما قاله الرسول ﷺ في بعض المنحرفين من أمته (يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها) وكذلك نجد اليوم من المسلمين من يشرب الخمر ويروجها بحجة التنمية الاقتصادية ، ضاربا عرض الحائط بقوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» .

ونجد من المسلمين من يقرأ قوله تعالى « ولا يبدين زينتهن» ويسمع حديث النبي ﷺ عن النساء الكاسيات العاريات ولكنه برغم ذلك يصر على ابداء زينة زوجه وبناته بدعوَى حرية المرأة .

ونجد من المسلمين من يحقر ما عظم الله ويستخف بالشعائر الدينية ، فإذا ذكرته بقوله تعالى : «ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه» وقوله : «ومن يعظم

شعائر الله فانها من تقوَى القلوب» رد عليك بانه حر في رأيه وأن حرية الرأي كفلها القانون فقد صار الانهماك في الشهوات ، والمجاهرة بالمعاصي ، والتحلل من القيم ، والاستخفاف بالمقدسات ، وحتَّى الردة عن الاسلام من مفاهيم الحرية عند أبناء الذين قدسوا هذه القيمة الخلقية العظيمة حتَّى قالوا «لو صحت الصلاة بغير الفاتحة لصحت بهذا البيت :

اتمنَّى على الزمان محالا
ان ترَى مقلتاي طلعة حر»

وقد ضربنا المثل بالحرية لأنها أقرب إلى الافهام من غيرها ، والا فان القاعدة كادت تكون هي اطلاق الاسماء الرفيعة على المسميات الوضيعة للتغرير بالسذج والاغرار والحكم على السابقين الأولين بانهم كانوا في ضلال مبين .

ومن مظاهر التبعية التي انساق المسلمون في حبلها بعد الحرب العالمية الأولى ، الأخذ بنظام الحكم الذي كان سائدا في بلاد الغرب آنذاك وهو الحكم الديمقراطي النيابي ، واعتباره أفضل أنواع الحكم على الاطلاق ، ومن تلطف منهم كساه حلة الاسلام وزعم أنه الشورى التي أمر بها القرآن . فكم سمعنا عن ديمقراطية الاسلام

والاسلام الديمقراطي وغير ذلك من التعبيرات الفارغة حتّى إذا مال ظل الديمقراطية وخفق نجم الاشتراكية بدأت نغمة الاشتراكية في الاسلام والحكم الاشتراكي ومقارنته بحكم الخلفاء الراشدين تتردد في الآذان . هذا في الشعوب الاسلامية التي يكون حكامها بحاجة إلى تملق عواطفها الدينية . واما التي فترت حماستها للدين فان حكامها يكشفون القناع عن وجوههم ويعلنون ان الدين لم يبق مقوما من المقومات التي تكون وحدة الأمة ولا مؤثرا من المؤثرات الفعالة في روحها القومية .

وأيا ما كان الأمر ، فان الاسلام أجل وأرفع مما يدعون ويحكمون . ولن يذوب في الديمقراطية ولا في الاشتراكية ولا في أية ايديولوجية أخرى . وستظل هذه المذاهب تتأرجح بين الدعاية البراقة والتجربة الفاشلة ، والاسلام هو الاسلام بمبادئه الخالدة وتعاليمه السامية ، وعدم اندفاعه في يمين ولا في يسار ، رعاية للمصلحة العامة ، وقياما بدور الريادة التي جعلها الله لمعتنقيه ، فهم القادة والناس لهم تبع . ولن يقبل المسلمون أبدا هذا الاسلام المُمَسَّح الذي يحاول الشباب المبهور بالحضارة الغربية ان يفرضه عليهم ، وهم يعتقدون جازمين ان الاسلام ما جاء الا لتقويم الاعوجاج الذي طرأ على

المسيحية ، فما اجهل من يدعو إلى العكس . كما انهم لن يرضوا أبدا عن غير نظام الحكم الاسلامي المستمد من الكتاب والسنة والقائم على شورَى أهل الحل والعقد الذين قرن الله شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته فقال «شهد الله انه لا اله إلا هو والملائكة وأولو ٱلعلم قائما بالقسط» والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

*

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من الشعارات الاسلامية الخالدة التي نادَى بها الكتاب ورددتها السنة وتلقتها الأمة بالقبول ؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولقد كان هذا الشعار وما يزال عنوان الديموقراطية الحق التي جاء بها الاسلام ، ومعيار سلامة المجتمع من الآفات والعلل التي أريد له بمقتضَى تعاليم الدين الحنيف ان يتجنبها ولا يقع فيها. أما كونه عنوانا للديموقراطية الحق فلأنه اشرك الأمة في الحكم بفرض رقابتها على الجهاز الحاكم وتخويلها حق الاعتراض على كل ما يخالف السياسة الشرعية وما ليس فيه مصلحة للعموم. واما انه معيار للمجتمع السليم فلكون القيام عليه والعمل به يسد كل منفذ لتسرب المفسدين وانطلاق الاشرار إلى العبث بالاخلاق وتجاوز الحدود. وان أمثل عصنور تاريخنا وأمجدها وأعظمها ، لهي تلك التي كانت فيها راية هذا الشعار مرفوعة باليمين ،

والحكومة وأهل الحفاظ من الأمة ساهرون على اقامة الشعائر وتنفيذ الشرائع ، وعدم انتهاك الحرم والاخلال بالآداب العامة وبالعكس من ذلك نجد العهود التي انتكست فيها راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هي العهود التي ساد فيها الظلم والظلام ، ومرج أمر الأمة ، ولم تأت من الاعمال ما يرفع لها رأسا أو يعود عليها بنفع .

ولا نلقى صعوبة في أخذ هذا المعنَى من قوله تعالى «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولائك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولائك لهم عذاب عظيم» فقد أمرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن نكون نحن المسلمين كافة ، أمة تدعو إلى الخير ، والخير اسم جامع لكل الفضائل بحيث يصح القول ان جميع القيم العليا تندرج تحته ، وبالضرورة إننا لا ندعو إليه حتَّى نتصف به . وذلك هو سر قرانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمدلول هذا الخطاب اننا بعد الاتصاف بالخير والدعوة إليه ، نقف بالمرصاد لكل من حاد عن سبيله ولم ينته إلى معالمه ، نأمره وننهاه لكي يستوي على الصراط المستقيم ، فإذا فعلنا ذلك كنا من المفلحين ، لأن الآية الكريمة حكمت لمن كان على هذه

الصفة بالفلاح ، وهو فلاح عام في الدين والدنيا .
بدليل انها اعقبته بأمرين أحدهما مما يقع في الحياة الأولى وهو اختلاف الأمة وافتراق كلمتها عند تفريطها في هذا الواجب الأكيد ، وثانيهما مما يقع في الآخرة وهو العذاب العظيم لمن ضيع الأمر والنهي ولم يعمل بما كلف به من ذلك . فلا تستقيم أحوال الأمة ويكتب لها النجاح والفلاح الا بامتثال أمر الله عز وجل والوقوف عند حدوده وعدم غض الطرف عن البدع والاهواء التي تنتشر فيها فتقودها إلى الهلاك والخسران .

ويؤيد ما ذكرناه ان الله تعالى خاطبنا في الآية التي تأتي بعد هذه ولاء بقوله «كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتومنون بالله» فجعل سبب الخيرية هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الايمان . وبذلك يعلم أن الأمة إذا تقاعدت عن هذا الوظيف لم تبق مستحقة لذلك الوصف ولو مع ايمانها ، لأن رسالة الاسلام ليست هي الايمان المجرد بل العمل والتبليغ وقد قال النبي ﷺ : (بلغوا عني ولو آية) ، والمجتمع الاسلامي يجب أن يكون قدوة ومثالا في حسن الاخلاق وصدق المعاملة ليكون دليلا على سمو هذا الدين ويقوم من سلوك أهله داعية إليه كما كان عليه الحال في

الصدر الأول فدخل الناس في الاسلام أفواجا ، ولا يتحقق ذلك إلا بالرقابة الصارمة على سلامة هذا المجتمع التي هي المقصود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فان بطل ذلك لم يبق وجه للخيرية لأنها ليست ذاتية ، وانما هي حكم يدور مع علته وجودا وعدما.

ونلتفت إلى الحديث الشريف الذي انما هو وحي يوحى ، إلى الرسول ﷺ ليبين للناس ما أنزل إليهم من الكتاب العزيز ، فنرَى أنه يسير مع مضامين هذه الآيات الكريمة جنبا لجنب ويؤكد ما اشتملت عليه من حكم وأحكام. يقول الرسول ﷺ : (لتامرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) والتفسير الواقعي لهذا الحديث الذي ليست فيه شائبة ميتافزيقية هو ان الأمة مدعوة إلى القيام بهذا الواجب لضمان سلامتها من عوامل الانحلال واسباب الاضمحلال فان ضيعته فان الامراض الاجتماعية تستشري فيها بسيطرة الاشرار عليها وتوجيهها إلى المصير المظلم الذي تتردَّى فيه فلا تقوم لها قائمة ولا تنفعها بعد دعوة ولا دعاء. وهذا أمر مشاهد مع الأسف لا يمتري فيه أحد ، وهو معقول المعنَى إذ أن السكوت عن المنكرات بله تشجيعها بحجة احترام الحرية الشخصية قد

أدّى شيئا فشيئا إلى انتشارها بكيفية فظيعة حتّى طغت على السنن المعروفة وقامت لها دولة وسلطان فلا يقدر أحد الآن ان يغيرها والذي يدعو إلى ذلك يصير هزؤاً وسخرية بين الناس .

ولعل قائلا يقول : كيف جعلتم الأمة كلها مخاطبة بهذا الأمر ، والآية انما تقول : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» وهلا ترون ان ذلك موقع في الفوضَى موجب لاختلال النظام ؟!

ونحن نجيب ان الآية جاءت على أسلوب التجريد وهو أبلغ في الخطاب والمعنَى اجعلوا منكم أمة هذه صفتها . وقال كثير من المفسرين : ان من في قوله «ولتكن منكم» للبيان بمعنَى كونوا أمة تأمرون ، الا ترَى أنه تعالى قال في الآية بعدها : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون» ولو جعلناها للتبعيض كما قد يتوهم وحكمنا بأن الأمر والنهي فرض كفاية إذا قام به البعض سقط الطلب عن الباقين ، لكان ذلك موقعا في الحرج الدائم لأن المنكرات لا تفتأ تنبعث من كل مكان ، في كل زمان ، وإذا لم تبادر الأمة بتغييرها وانتظرت حتّى ينبري لذلك من يتعين عليه ، انتشرت انتشارا عظيما واثمت الأمة كلها بسبب التفريط ، لا سيما إذا انعدم المحتسب

الذي كانت الحكومة تقيمه مقام النائب عنها في هذا الصدد ، كما هو الحال اليوم ، فصارت بلاد الاسلام مسرحا لارتكاب أنواع الفجور واقتراف ضروب الآثام .

واما ان خطاب الأمة على سبيل العموم بهذا الواجب يوقع في الفوضى ويوجب اختلال النظام فالجواب عنه ان الشارع الحكيم بين لكل طائفة من الأمة ما يجب عليها من ذلك والزمها القيام به على سبيل الفرض والتعيين فقال كما في الحديث المشهور : (من رأي منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان) قال العلماء التغيير باليد لولاة الأمر وباللسان للعلماء وبالقلب لعامة الناس ، وانما اضطر العلماء إلى هذا التفصيل لما عم الجهل وكثر تجاوز الحدود من العامة وبعض الولاة . فانتظم بذلك الأمر ووقف كل عندما حد له .

وهذا الحديث هو أيضا مما يدل على ان الخطاب بهذا الواجب يتوجه إلى الأمة جمعاء ولا يخص طائفة منها دون طائفة . وتقييد العلماء له بما ذكر هو مما تقتضيه الأصول ولا تأباه النصوص . فإنهم يتفقون على أن المنكر الذي يجب تغييره هو ما علم من الشرع انه منكر وكان تغييره لا يؤدي إلى منكر أشد منه، ومن ثم ورد الأمر

بالسمع والطاعة للأئمة فان عليهم ما حمِّلوا وعليكم ما حملتم، وهذا أمر لا يحققه الا العلماء فإن قام غيرهم بالانكار ربما وقع في محظور عظيم كمن قتل شخصا من أجل شربه للخمر وكالعامة الذين انكروا على سيدنا عثمان رضي الله عنه أمورا لا تستوجب قتله وفتح باب الفتنة الذي لم يغلق منذ أن فتح. وهكذا فإن الواجب على العموم إذا رأوا منكرا مما لا خفاء به أن يرفعوه إلى الوالي وان يقفوا في ذلك موقف الجد والصلابة حتَّى يغيره فإن تهاونوا وقعوا في الاثم الذي لا مخلص منه. وإن كان المنكر مما يخفى أمره فعليهم الرفع إلى العلماء ليبينوا حكم الله فيه ـ على أن العلماء يجب عليهم أن يكونوا بالمرصاد لكل المحدثات والبدع التي تخالف الدين فيبادروا بانكارها وينبهوا الأمة على ما فيها من الضرر لتتجنبها . وعليهم أن يكونوا لسان الأمة الناطق والحارس الأمين على تعاليم الدين فيبلغوا إلى الولاة ما لم يبلغهم من الظلم والحيف الذي يقع على ضعفاء المسلمين ويطالبوهم بتغيير المنكر والضرب على أيدي المفسدين . والولاة مطالبون حينئذ بانصاف المظلوم واحقاق الحق ونصرة الدين «ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض. اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور» .

وهاهنا أمران لابد من التنبيه عليهما . الأول هو أن بعض الناس يقولون : المهم هو أن تستقيم أنت ولا عليك في الغير ، ويستدلون بقوله تعالى «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وهذا هو ما يعبر عنه بعضهم بقوله : ليكنس كل واحد فناء داره كي تعم النظافة ، ولكننا انتظرنا كثيرا فكانت النتيجة هي أن هناك من يحمل الازبال ويضعها في الأفنية المكنوسة . ولقد أثيرت هذه الشبهة في الصدر الأول وأجاب عنها الصديق رضي الله عنه بالحديث الذي أخرجه الترمذي وغيره من أئمة السنة عن قيس بن حازم قال قام أبو بكر خطيبا فحمد الله وأثنَى عليه ثم قال : أيها الناس انكم تقرأون هذه الآية «يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وانكم تضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا رأَى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقابه) .

والأمر الثاني هو ما شاع وذاع على السنة من يكبرهم الناس ويصغون إليهم من أنه إذا وقع خلاف في أمر مما يهم الأمة ويتوقف عليه مصيرها ، يجب رده إلى الشعب ليقول رأيه فيه . وهذا أيضا من المنكر بل من أعظم

المنكر الذي يجب تغييره وعدم السكوت عليه والا أدَّى إلى ضياع الدين والوقوع في المفاسد التي لا افاقة منها أبدا. فالله سبحانه وتعالى يقول: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تومنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا» والرد إلى الله والرسول يكون بالرجوع إلى كتاب الله العزيز وسنة نبيه المطهرة، وهما بين أظهرنا والحمد لله قائمان حاكمان بالعدل والقسط فالاعراض عنهما والتماس الهدَى من غيرهما ضلال بين وزيغ عن الصراط المستقيم. كيف والشعب ما هو إلا مجموعة من الناس يخطئون كثيرا ويصيبون قليلا ويتبعون الهوَى وتتلاعب بهم القيادات المنحرفة ولا كذلك الدستور السماوي المحفوظ بحفظ الله «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون».

وانما سرى هذا الرأي الفائل إلى الأمة الاسلامية من ايغالها في التقليد وترك ما عندها من الهدَى والنور إلى المذاهب والنظم الاجنبية التي شتتت شملنا وفرقت كلمتنا، ولا والله لا نعود إلى ما كنا عليه من مجد وسؤدد الا إذا تمسكنا بديننا وجعلناه هو الحكم في مشاكلنا. والله المسؤول ان يلهمنا الرشد ويهدينا سواء السبيل بمنه.

الحلال والحرام

ليس شيء من تعاليم الاسلام بعد القواعد الخمس أحق بالبحث من مسألة الحلال والحرام ، لأنها مناط الفعل والترك وعليها ينبني سلوك الفرد المسلم وبها تتميز طبيعة المجتمع الاسلامي الذي يختلف كثيرا عن غيره من المجتمعات ، وإذا كان هذا حقيقة ثابتة فيما مضى من العصور ، فانه في عصرنا الحاضر الذي طغت فيه المذاهب والآراء الاجتماعية والتربوية المختلفة المبدأ والمتعددة الغاية ، أحرَى ان يكون حقيقة الحقائق وأكثرها ثبوتا عند النظر والاختيار ، كي نحتفظ لمجتمعنا بسمته الاسلامية التي تجعله واضح المعالم بعيدا عن التأثر والانفعال بالافكار الهدامة والدعوات الموبؤة .

وليس علينا من نقيصة ولا عار ، إذا نحن بحثنا مسألة الحلال والحرام في هذا العصر الذي يسمونه عصر الحرية وعصر النور ، موهمين السذج والاغرار ان العصور

الماضية كانت عصور عبودية وعصور ظلام ، فهل هي الا مسألة قانونية تتعلق بحفظ النظام وحقوق الانسان وبناء المجتمع الفاضل الذي توخاه الحكماء والفلاسفة من قديم الزمان ؟ ومتَى كان بين الحرية والقانون تعارض ، وهي التي لا تنتعش ولا ترتاش الا إذا حماها القانون ، فإذا تخلّى عنها صارت فوضى وتعسفا لا يطاق ؟

ولعل أحدا منا لا يختلف في أن عصور النور الحقيقية هي التي تصان فيها الحرمات وتحفظ كرامة الانسان ويكون للقيم الروحية والاخلاقية الدولة والسلطان على ما عداها من المذاهب والآراء . اما إذا ديست هذه المعاني السامية بالارجل ، واطلق العنان للغرائز الحيوانية تمارس حريتها فان ذلك هو الزمن الذي يسود فيه الظلام ولو غلبت اضواء ليله على نهاره .

ان مسألة الحلال والحرام هي عين القانون الذي يضبط قضية الحرية ويحدد شروط مزاولتها للناس أي أنها تعيين الفعل والترك وما لا يجوز ان يتورط الانسان فيه منها تفاديا لطائلة العقاب . ومعلوم أنه بقدر احترام الانسان للقانون تسمو مكانته في المجتمع ويبتعد عن مواطن الاتهام ، وانه لا يتلطخ بالتهمة ويوصف بالاجرام الا من استهان بحرمة القانون واجترأ على مخالفته فهل علينا

اذن من حرج إذا نحن بحثنا في هذا الجانب من قانوننا الاسلامي واحكام شريعتنا الغراء التي هي أكمل الشرائع وأعدل القوانين ؟

وباعث آخر يحملنا على تناول هذا الموضوع ، وهو تجلية ما يتضمنه حكم الشرع الشريف في مسألة الحلال والحرام من السماحة والتيسير ورفع الحرج عن الناس وعدم التضييق عليهم في مطالب الحياة ، على خلاف ما يعتقده الكثير منهم في هذا الصدد ، إذا سمعوا كلمتي الحلال والحرام فيظنون ان الالتزام بذلك من العسر بمكان ، لما فيه من التشديد والمشقة والحرمان ، وهو اعتقاد خاطئ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : «وما جعل عليكم في الدين من حرج» ويقول : «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» والنبي ﷺ يقول : (ان هذا الدين يسر فأوغل فيه برفق) ويقول : (بعثت بالحنيفية السمحة) ، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي تؤكد ان روح الاسلام هي هذه السماحة واليسر المتجليان في جميع تعاليمه سواء كانت من قبيل العادات أو العبادات .

ومسألة الحلال والحرام ذات شعب ثلاث ، احداها تتعلق بالبراءة الأصلية وحكمها حلية الاشياء ما لم يتبين

ضررها لقوله تعالى : «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا» قال القلشاني اختلف في تعريف الحلال فقيل هو ما لم يعرف انه حرام ، وقيل هو ما عرف أصله ، والأول أرفق بالناس لا سيما في هذا الزمان . وثانيتها تتعلق بتحقق المضار وحكمة الحرمة سواء كانت المضرة للنفس أو للغير لحديث ابن ماجة وغيره «لا ضرر ولا ضرار» يعني في شرعنا والمراد ان ذلك لا يجوز فيحرم كل فعل أو قول يضر بنفس الانسان كالانتحار والسكر والكذب وما إلى ذلك كما يحرم كل فعل أو قول يضر بالغير كالقتل والغصب والغيبة وما أشبه ذلك .

وهاتان الشعبتان لا خلاف فيهما بيننا وبين جميع أصحاب القوانين الوضعية الا من حيث التعبير . فنحن نطلق على جزئياتهما لفظ حلال أو حرام على ما أتى به الشرع ، وينبغي ان نحتفظ بهذا الاطلاق لما له في نفوسنا من دلالة موحية بالامتثال لأمره عز وجل . ورجال القانون وعلماء الاخلاق يعبرون بحرية التصرف وبالمخالفة مثلا ولا زائد على ذلك .

وثالثتها تتعلق بما تردد بين المنفعة والمضرة واشتبه أمره على كثير من الناس . وهذا يجب ان نقف عنده وقفة طويلة لأنه المقصود من هذا البحث إذ مرجعه إلى أمور

المعاملة بين الناس ، وقد قال النبي ﷺ : الدين المعاملة .

فبعض الناس تهتَّك فيه حتَّى قال قائلهم تلك العبارة التي تجري على ألسنة كثير من المتحللين من أوامر الشرع المطاع ، وهي «الحلال ما حل باليد» وبعضهم تشدد فيه غاية التشدد حتَّى نفَى أن يكون في الوقت شيء حلال قال الجزولي اختلف في وجود الحلال في زماننا هذا فذهب الغزالي إلى انه معدوم وذهب ابن العربي إلى أنه موجود وهو المشهور ولكن طلابه قليل .

فهل الأمر بهذا الغموض حتَّى يصح ان يذهب القوم هذين المذهبين المتطرفين في التحلل والتشدد ؟

اللهم ، لا ! فقد جاء في الصحيح عن النعمان ابن بشير رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ان الحلال بيّن وان الحرام بينّ ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقَى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام) الحديث .

فهذا نص صريح من صاحب الشرع على ان الحلال موجود وهو بين واضح لا غبار عليه وميسر لمن طلبه كما ان الحرام موجود ومعروف ولا يحتاج إلى كثير علم

لتجنبه . وانما يبقَى بين ذلك أمور قليلة تشبه ان تكون حلالا وان تكون حراما فينبغي تجنبها ما دامت الشبهة قائمة خوفا من الوقوع في الحرام فإذا انتفت شبهة الحرام أو ضعفت حلت ولا ينبغي الاستقصاء في السؤال عن ذلك فانه بدعة قاله النووي .

وأيضا فان مما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال ان الله تعالى طيب لا يقبل الا طيبا . وان الله أمر المومنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا» وقال تعالى «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» الحديث ، فهل يعقل أن يتحدث النبي إلى الناس مبينا لهم ما نزل إليهم من الأمر بطلب الحلال الطيب ، وعدم الأكل الا منه وانهم ورسل الله في ذلك سواء . ثم يكون هذا الحلال الطيب مفقودا غير موجود ؟

ان ذلك يقتضي أحد أمرين ؛ اما بطلان التكليف وإما التكليف بالمحال . وكلاهما باطل ينزه الشرع الشريف عنه . وفي الحديث لو كانت الدنيا دما عبيطا لكان قوت المومن منها حلالا . وفي رواية لو كانت الدنيا بركة دم لكان رزق المومن منها حلالا . وهو وان كَان لا يعرف له

اسناد الا انه صحيح المعنَى بل هو من فحوَى الخطاب الوارد في الآيتين المذكورتين في الحديث قبله .

واذن فالحلال موجود باق ببقاء التكليف لا يصح انكاره ولا دعوَى فقده فيما مضَى من الزمن ولا في زماننا الحاضر ولا في الزمن الآتي : والذين قالوا بعدم وجوده أوقعوا أنفسهم والأمة في ورطة عظيمة من حيث لا يشعرون . فهم إذا كانوا يعتقدون عدم وجوده كان عليهم أن لا يتبلغوا إلا بما يسدّ الرمق ولا يتسعوا في مأكل ولا مشرب ولا ملبس ، وهو حرج في الدين ما أنزل الله به من سلطان ، فإذا خالفوا ذلك وقعوا في الحرام وهم يعلمون . وهذا لا يناسب العلم ولا الزهد الذي يدعون . واما الأمة فقد جعلوها تتخبط في الحرام وتغرق في بحره من غير مبالاة بامر الشرع حتَّى قامت طائفة منها تعتقد بحلية ما حرم الله وتقول تلك القولة المنكرة : «الحلال ما حل باليد» وهذا الكلام يشبه أن يكون مروقا من الدين أدى إليه التزمت والتنطع والغلو المذموم .

والحق الذي يجب أن لا يعدل عنه هو ان الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله وكلاهما ظاهر لا خفاء به ، وليس الحلال هو كل ما حل باليد ولا الحرام فقط هو الموجود ، فإذا تحرى المسلم في بعض المعاملات الربوية

الخفية وتجنب الغش والغرر ، فكل كسبه حلال طيب ان شاء الله لا شبهة فيه ولا حرام. فالعامل إذا قام بما عليه من عمل ولم يغش فيه فأجره حلال طيب ، والتاجر إذا نصح في تجارته ولم يغر بها فكسبه حلال طيب ، والموظف إذا قام بواجبه وأدَّى ما عليه من حق فمرتّبه حلال طيب ، وهكذا كل من زاول عملا وقام بخدمة مخلصا النية في ذلك فما يستفيد لقاء اتعابه من مال ، كله مال حلال لا شبهة فيه ولا دخل.

ولقد جاء في شرح الوغليسية للشيخ زروق رحمه الله أن أصول الحلال عشرة تجارة بصدق ، وأجرة بنصح ، واعشاب الأرض غير المملوكة ، وصيد البحر ، وصيد البر في غير الحرم والاحرام ، واقسام الغنائم ، وأخماسها إذا قسمت بالعدل وأصدقة النساء ، والمواريث ما لم تعلم حرمتها ، والسؤال عند الحاجة الشديدة ، وينبغي ان تكون هذه أمثلة للحلال لا أصولا له بدليل ان بعضهم زاد عليها الهدية من أخ صالح وماء النهر. والمهم أن زروقا وهو محتسب العلماء والأولياء كما يقولون عنه ؛ لم يذهب مذهب الغلاة من الفقهاء ، والمتصوفة في عدم وجود الحلال ، وأهم من ذلك انه لم يقل بوجوب النظر في أصول هذه الأشياء وأصول أصولها كما يشترط بعض

المتنطعين لأجل أن تكون حلالا . وهذه هي روح التشريع الاسلامي المبني على المسامحة وعدم التعنيت ، لا ما يأخذ به أنفسهم أولائك المفتاتون على الشرع ، ويحاولون أن يأخذوا به غيرهم من عامة المسلمين فينفرون الناس وقد أمروا ان يبشروهم ويعسرون عليهم وهم مطالبون بالتيسير والتسديد والمقاربة (ولن يشاد أحد الدين الا غلبه) وفي القرآن العظيم «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ان الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون» .

*

غربـة الاسـلام

أصبح ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ في حديثه عن غربة الاسلام بين أبناء آخر زمن ، حقيقة واقعة لا يماري فيها أحد . ودع عنك المنكرات والفواحش التي انتشرت بين المسلمين بكيفية لم يسبق لها مثيل ، وانظر فقط إلى المظاهر والحالات التي طوت كل ما كان معهودا من تقاليد المسلمين وتحرجهم من كل عادة لأهل الاديان الأخرى ، أو عرف يتميزون به ، فبعدما كان ذلك من الأشياء المنبوذة لديهم والتي يُتمثل بانها من فعل اليهود والنصارَى ، صار اليوم من المألوف والأمور المرغوب فيها .

فالعطلة الاسبوعية صارت هي نصف يوم السبت وكل يوم الأحد ، سواء في ذلك القطاعات العامة والقطاعات الخاصة ، ولقد تعجب من انعقاد مجلس حكومي والدعوة إليه في يوم الجمعة ، وفي الساعة التي

تفسخ فيها العقود شرعا ، في حين يكون يوم السبت فارغا من العمل ابتداء من الصباح ، حتّى الاذاعة انما تأتي فيه باخبار بائتة ، وتكون نشرتها أقصر نشرات الاسبوع ولا تسل عن يوم الأحد فهو يوم غياب مطلقا ، لا كلام عليه .

وأقبح ما يتجلّى فيه هذا التزلف لليهود والنصارَى . حفلاتُ الاعراس ، فقد كاد لا يقع احتفال بعرس وزفاف إلا في يوم السبت زعما بان الذين سيحضرونه غالبهم من الموظفين ، وسيكون ذلك مدعاة لسهرهم (ولا تسل كيف) وعدم استيقاظهم مبكرا من الغد للعمل ، فيا أسفي كيف تمكن الشيطان من عقول الناس وصار يتلاعب بهم كما يشاء .

لقد كان الناس يتحرون يوم الخميس لاعراسهم تيمنا بليلة الجمعة ، أو يوم الاثنين تبركا بيوم ولادة الرسول ﷺ ، فصاروا يتبعون اليهود والنصارَى ، لاعتبار فارغ ، في أعظم حدث يكيف حياتهم الشخصية ، ويكون له الأثر الفعال في مستقبل بنيهم وأُسرهم ، فشتان بين ما كان يقصده السلف الصالح وما يقصده هذا الخلف الطالح .

ولقد كنت كتبت مقالا في مجلة «لسان الدين» منذ

سنين ، بعنوان هذا المقال ، أخذت فيه على بعض العلماء حمله لوسام أجنبي يسمى الصليب الأكبر ، ولم أكن أتوقع أن يحصل هذا من غير متساهل في دينه ، يتعلل برخصة باطلة أو فتوى مردودة ، فإذا بي أرى شابا متدينا من أسرة مومنة ، امتلك صيدلية فوضع عليها صليبا ، وقد كانت في ملك يهودي من قبله سنين عديدة ، ولكن من غير صليب .

ثم حضرت جنازة لميت حمل من بلد بعيد على سيارة لنقل الموتى في ملك أحد المعتنين بدينهم والمتعلقين باتباع السنة ، فإذا بالسيارة تحمل الشعارين الصليب والهلال ، وسألت صاحبها الذي هو سائقها ، وكان حاضرا ، فقال انه يحمل الموتى من أهل الدينين ، فلذلك صنع ما صنع !

فاستفدت أن الشعور الديني ضعيف في نفوس الناس ، ولو ادعوا ما ادعوا ، خاصة أمام المصالح المادية التي أصبحت الها معبودا وعقيدة مقدسة .

ولعل أحدا لا يجهل ما شاع وذاع من هذه الأسماء التي حذفت منها لفظة عبد واقتصر فيها على ثاني المتضايفين كعبد العزيز وعبد الكريم وعبد الغني وما إليها فصارت عزيز وكريم وغني ، انفة من العبودية لله عز

وجل ، بل لقد قيل لبعضهم فيما حدثني به الثقة لماذا تنادي ابنك غني واسمه عبد الغني ! فقال انني لم اسمه عبد الغني وانما سميته غني ولماذا يكون عبدا للغني ولا يكون هو غنيا ؟..

فانظروا إلى هذه الجهالة التي ربما أدت بصاحبها إلى الكفر والعياذ بالله .

وقد كان لهذا الجهل مفعول رجعي عند بعضهم فأصاب آباءهم المومنين ، فتجد الواحد منهم يختصر اسم أبيه الذي نعرفه حق المعرفة فيقول أحمد عزيز يعني ابن عبد العزيز ومحمد كريم يعني ابن عبد الكريم . وهكذا اضمحل كل ما كان يتوخاه الاسلاف من التبرك بالاسماء الاسلامية وتخير ما وردت السنة بافضليته منها . وذلك في قوله ﷺ : (أفضل الأسماء ما عبّد أو حمّد) ، فيالله من عمى البصيرة !

وعلى ذكر بدعة الاسماء هذه ، لا ننسَى ما عمت به البلوَى من تسمية الأجانب لأشياء خسيسة في نظر الشرع باسماء شريفة كتسمية البارات باسماء رجال من أهل الدين والصلاح ولقد قرأت مرة وانا شاب يافع دون العشرين في ناحية الدار البيضاء على بار اسم بار سيدي مبارك فأصابني من الحزن والأسف ما جعلني لا أسيغ

أكلا ولا شرابا أكثر من أسبوع. والآن قد طم السيل فصرنا نسمع بأنواع من الخمور تسمى باسماء مقدسة كخمر سيدي البخاري ، أعني حافظ الاسلام وأمير المومنين في الحديث . فليت شعري من الذي أعطَى الرخصة بهذه التسمية هل هو مسلم أو يهودي ينتقم من الاسلام ؟

وقد نشر في الصحف خبر احتجاج سفارة فرنسا في أحد البلاد الاروبية على تسمية بار باسم رئيس الجمهورية (بومبيدو) فعلى الأقل كان على هؤلاء الذين أعطوا الرخصة بتسمية ذلك النوع من الخمر بسيدي البخاري أن يقتدوا بالفرنسيين في غيرتهم ان لم تحركهم غيرة الاسلام !

وقلت تسمية الأجانب لاسماء خسيسة باسماء شريفة ، وهذا كان فيما مضَى ، اما الآن فان المسلمين قد ساروا في هذا السبيل ، وأمر تسمية بعض (الأشراف) لأكبر دار من دور الفسق والفجور في طنجة باسم مسجد تاريخي عظيم غير خاف على أحد . وقيل لي أنه لما خوطب في ذلك أجاب بان الذين رخصوا له أعرف بما يجوز وما لا .. !

ولا أكثر من الأمثلة ، ولكن مثلا آخر حز في نفسي كثيرا ، لابد من الاشارة إليه ولو باختصار .

فيه ، ودليل هذا الاجماع قوله تعالى : «ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسؤولا» وفي نظم ابن عاشر ، الذي كان يتعلمه اطفال المسلمين قبل أن يتولاهم المعلمون الاجانب والمتخرجون على أيديهم .

ويوقِفُ الأمور حتّى يعلما
ما اللهُ فيهنَّ به قد حَكَما

وبهذا صدق قول رسول الله ﷺ بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبَى للغرباء ؟ قيل من هم يا رسول الله ؟ قال الذين يصلحون إذا فسد الناس ، وفي رواية الذين يصلحون ما أفسد الناس .

*

وذلك ما وقفت عليه في يومية الحائط لهذه السنة[1] من اعتنائها بذكر أيام (القديسين) من النصارَى واعيادهم ، كما تذكر الاعياد الاسلامية والايام الفاضلة في الملة الاسلامية ، وهي بدعة لم يسبق ليومية من اليوميات التي تصدر بالمغرب – فيما أعرف – ان ارتكبتها. فليت شعري لمن يقدم صاحب اليومية هذه الخدمة ؟ أللمسيحيين الأجانب الذين يقطنون في بلادنا . وهم لا يستعملون يوميته قطعا ؟ أم إنها خدمة تبشيرية يقوم بها مجانا ؟ ونقول مجانا لأننا ما زلنا نحسن به الظن ، ونرَى أنه مخدوع ومتجاوز لحدود التسامح الديني الذي يسمع به ولا يحققه .

والخلاصة ان الاسلام أصبح غريبا بين المنتمين اليه ، وفي عقر داره ، بسبب الاعراض عن دراسته والجهل بتعاليمه ، وان المسلمين غلبت عليهم الشهوات وطغَى حب المادة في نفوسهم . فصاروا لا يهتمون الا بما يجلب لهم الربح ويحقق لهم المتعة وان كان في ذلك خواء روحهم وخراب دينهم . وقل منهم من يسأل عن حكم الله فيما يزاوله من الأمور ، وقد اجمع علماء الاسلام على أنه لا يحل لامرئ مسلم ان يقدم على أمر حتَّى يعلم حكم الله

---

(1) سنة 1970

ماضي المرأة المسلمة وحـاضـــرها

ظلت المرأة المسلمة مثال الطهر والصيانة ، تقوم على خدمة بيتها وتربية أولادها ، وتسهم في بناء المجتمع الاسلامي الراقي بالاعمال التي هي من اختصاصها ، لا تبرج باسم السفور ولا اختلاط بدعوَى الحرية ، ومن باب أحرى لا تسكع في الطرقات من غير ضرورة ، مع ابداء الزينة التي أمر الله باخفائها اطفاء لنار الفتنة . وكانت تطلب العلم بالسكينة والوقار ، وبرع الكثيرات من النساء في علوم الفقه والحديث بحيث صرن استاذات يؤخذ عنهن العلم ويرحل إليهن للاستفادة منهن ، وكذلك نبغ منهن الطبيبات الماهرات ، والأديبات البارعات ، وكانت في مدينة العرائش لزمن غير بعيد سيدة تقوم بوظيف الموقت من أسرة زروق المعروفة بهذا الشأن ، وذلك لما عدم من رجالها من يحسن علم التوقيت .

أما في بقية الفنون والصنائع فحدث عن براعة المرأة المسلمة ولا حرج ، وهنا في المغرب كانت المرأة تتقن عشرات الصنائع والحرف من صنع الزرابي ونسج الثياب الحريرية والصوفية والقطنية الفاخرة والتطريز على اختلاف أنواعه وتفصيل الملابس وخياطتها وعمل المناطق والخمر والمناديل والأزر وغير ذلك مما تعمر به وقتها وتنمي ثروتها ان كانت ذات ثروة أو تسد حاجتها ان كانت فقيرة . ولم يكن يخلو بيت من البيوت مهما كانت صفته من سيدة تزاول عملا من الاعمال التي ذكرنا أو ما يناسبها . ومن النساء من كن يتعاطين التجارة في بيوتهن ، خاصة في الثياب وادوات الزينة والحلي وما إلى ذلك وكانت السيدات المتصونات يترددن على بيوت التجارة هذه ويخترن بضائعهن بأنفسهن إذ كان نادرا جدا ان تقصد سيدة من الطبقة الراقية متجرا عموميا لتشتري أشياءها منه كما يقع اليوم . وعلى كل حال فقد كان للمرأة المسلمة شخصية مالية كما كان لها شخصية أدبية ، وقضية ذلك انها لم تكن قط عالة على ذويها وزوجها بل كانت كما أراد الشرع عاملة مدبرة تتصرف في شؤونها المالية وغيرها بكل حرية ، ولا ضغط عليها من أهلها ولا من قرينها في شيء من ذلك مادام يحفظ كرامتها ويصون شرفها.

أما العمل خارج البيت وفي خدمة الأجانب فقد كان عارا لا ترضَى به أية امرأة تحترم نفسها ، وكان من الصعب العثور على خادمة بالاجرة ، ولذلك لم تكن الخادمات الا من الرقيق . ولعل ذلك مما جعل سوق الرقيق نافقة جدا .

أما مكانتها في نفس الرجل فيكفي انه كان يتقدم لخطبتها بوجوه البلد وكبار أفراد أسرته من نساء ورجال ويبقَى أهلها في مشاورة مع أنفسهم ومع الناس في ذلك مدة تطول وتقصر بحسب الظروف والأحوال وهو متلهف على معرفة النتيجة فإذا رضوا ورضيت هي ساق إليها من الهدايا والتحف زيادة على المهر ما يعبر به عن حبه لها وتعلقه بها ثم لا تسل عن حفلات الزواج وما تحاط به من هالات وما يقام فيها من أفراح ، لا كما يجري اليوم من تهافت الفتيات على الشباب وخطبتهن لهم في أكثر الأحيان ثم وقوعهن في حبائل ذوي المكر والخداع إلى آخر ما هو معلوم .

ولم يكن يقع تزويج أية فتاة بدون مشاورتها وإن نص الشرع على أن للأب اجبار بنته على ما يراه سدادا وصلاحا لها ، ولكن أعداء الاسلام والجهال من المنتمين له كثيرا ما يروجون هذه الدعاية طعنا في الدين وتحريضا

للبنات على التمرد الذي يخرجن به من طاعة الله وطاعة والديهن ، نعم قد تقع بعض الجزئيات من هذا القبيل ولكنها كما تقع في أوربا وأمريكا وجميع أنحاء العالم إذ لم تخل الدنيا قط ولن تخلو أبداً من المستغلين والمتنطعين.

كما ان ما يشيعه المغرضون من الأجانب وفراخهم الذين نشأوا في حجرهم عن المرأة المسلمة أنها كانت لا ترَى النور وانها كانت سجينة داخل الحريم لا تخرج منه إلا مرتين في العمر ؛ مرة إلى زوجها ومرة إلى القبر عند وفاتها لا أصل له من الصحة مطلقا وانما هو افتراء وتشنيع ، فاننا ما سمعنا بهذا في أية أسرة من الأسر الاسلامية في فترة من فترات التاريخ ، وكلنا ذوو أسر مترابطة برباط القرابة المستحكمة مع عشرات الأسر ، فأينا يمكن أن يدعي أن هذا وقع في أسرة من الأسر التي يعرفها ؟ بل الذي نعرفه ان السيدات كن يخرجن دائما لزيارة معارفهن ولحضور الحفلات التي تقام بمناسبات مختلفة كالعرس والعقيقة والاعذار وغير ذلك ، وكن يقمن الحفلات الخاصة ويستدعين صديقاتهن ، ويذهبن للنزهات في البساتين واماكن الفرجة ، ويزرن المقابر للترحم على موتاهن ويقصدن الأماكن المقدسة للتبرك ويحججن بيت الله الحرام.

فياالله مما يتقول المتقولون على هذا الاسلام وما يعمل خصومه لخراب بيته ! والانكَى هو أن يتبعهم أبناؤه في أقوالهم وأفعالهم شاعرين أو غير شاعرين بذلك .

نعم لم تكن المرأة المسلمة واحرَى الفتاة تتسكع في الطرقات صباح مساء من غير باعث ولا حاجة كما هو شأنها اليوم ، ولم تكن تتبرج بزينتها كما تفعل اليوم وانما كانت إذا اضطرت إلى الخروج تتستر بلباس الحشمة والوقار ولا تبدي زينتها للناس ، وكان الحياء الذي هو خلق الاسلام يمنعها من هذا التبذل الذي وقعت فيه اليوم حتَّى فقدت مكانتها في نفس الرجل ، وأصبحت سلعة كاسدة وبضاعة مزجاة ، ولم يكن أحد يجرؤ على التعرض لها أو تحديق النظر إليها على خلاف ما هو واقع الآن من اسماعها كلمات الغزل وربما المراودة من هوانها وسقوط حرمتها .

وبالجملة فان فرق ما بين المرأة المسلمة أمس واليوم كالفرق بين النور والظلمة والصحة والمرض والحرية والعبودية ، نعم الحرية والعبودية فان ماضي المرأة المسلمة كان مثالا للحرية الحقيقية التي تجمع معاني الشرف والعزة والكرامة ، لا هذه الحرية المزعومة التي هي العبودية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني الضعة والحقارة والتسخير وما يعقلها الا العالمون .

موقف المرأة المغربية من الدين

أجرت مجلة جون افريك استجوابا مع الاستاذ بول هوري شومبارد دولوف مدير جمعية علم الاجناس الذي قام ببحث حول المرأة في المجتمع تناول فيه بالخصوص المجتمع الفرنسي والكندي والمغربي والافريقي والبولوني . ومما جاء في هذا الاستجواب مما يتعلق بالمرأة المغربية — وقد بين لمندوب المجلة أن تطور المرأة في المغرب يسير بخطىً أكثر سرعة من تطور المرأة في البلاد الأوربية — قوله جوابا عن سؤال المندوب الذي استشعر من هذا الرأي أن المرأة في المغرب ربما تكون قد نبذت الدين وراء ، فألقَى عليه هذا السؤال :

س — ما هو موقف هؤلاء النساءالمتحررات ازاء الدين !

ج — انهن يعتقدن في كثير من الأحيان دون أن

يجرؤن يوما على ابداء هذا الاعتقاد: انه في الامكان التوفيق بين الدين الاسلامي والحياة العصرية ولكنهن يصطدمن في بعض الأحيان بمواقف أعداء التحرر النسوي. وقد صدر مرسوم في المغرب سنة 1952 يحرم على المرأة مزاولة الوظائف العامة. وقد استند العلماء في هذا المرسوم على الآية القرآنية «الرجال قوامون على النساء» ولكن علماء القانون لا يوافقون على هذا التفسير المتشدد للنصوص المقدسة. ويجب التذكير هنا بأن محمد الخامس كان له فضل تطوير المرأة لا بوصفه ملك المغرب فقط. ولكن بوصفه أمير المؤمنين. ولذلك فلم يتردد أن يعلن أن المرأة التي طالما نحيت جانبا والتي كانت ضحية فهم خاطئ للدين وفريسة تقاليد خاطئة، قد أقامت الدليل على حيويتها عندما أخذت بنصيبها في خدمة البلاد.

وهذا الكلام فيه من الصواب والخطأ والتناقض ما يحتاج إلى بيان. ونحن غيرة على المرأة المغربية وعلى الدين وعلى الحقيقة ان تطمس باسم البحث الاجتماعي نعقب عليه بما يزيل الوهم الواقع فيه ويعطي لكل ذي حق حقه.

فالسؤال الذي وضعه مندوب «جون افريك» بناء على

قول الباحث ان المرأة المغربية تتطور بسرعة أكثر من المرأة الاوربية هو في محله. لأن التطور الذي يفوق تطور الأوربيات، وهن قد بلغن المدَى في هذا التطور، لابد أن يكون على حساب الاعراف والتقاليد والاخلاق، وهي جوهر الدين وعنصره الذي يتبلور فيه.

فهو تطور لا خير فيه. ولذلك بادره المندوب بالسؤال عن موقف هؤلاء النساء المتحررات من الدين.

وجواب الباحث بانهن يعتقدن امكان التوفيق بين الدين الاسلامي والحياة العصرية، هو حقيقة لا ريب فيها وذلك من دليل تفتح ذهنية المرأة المغربية وتربيتها الصحيحة. ولكن قوله انهن لا يجرؤن على ابداء هذا الاعتقاد، ليس بصحيح. فالنساء المثقفات عندنا – الا قليلا منهن – يعرفن ان الدين الاسلامي يدعو إلى التطور ومجاراة سنن الكون والأخذ بأسباب النهضة ويعلن ذلك ويتحدثن به في المقامات الخاصة والعامة. ومن كان منهن لا يجرؤ على ذلك فاما لنقصان في المعرفة واما لتطوح في (العصرية) يبعد أن يوافق عليه دين من الأديان أو مبدأ أو سلوك أخلاقي حتّى لو لم يكن هناك دين.

وأخشَى أن يكون هذا هو التطور الذي يعنيه الباحث الذي تفوق فيه المرأة المغربية المرأة الأوربية، فمن المعلوم

أن هناك نساء وفتيات طائشات يظللن يتسكعن في الطرقات بلباس يرتفع إلى ما فوق الركب ويظهر الصدور ويبرز النهود وشعر مرجل مسرح على أحدث طريقة وأغربها ، لا شغل لهن إلا ارتياد الاماكن المشبوهة والتعرض للشبان المجرحي الأخلاق . وهناك طفلات ، نعم طفلات لا تتجاوز سنهن عشرة أعوام يعاشرن رجالا وشبانا منحرفين . وهناك مواليد تجهض وآخرون يخنقون . ولقد جاء في تقرير لاحدَى المفتشات الاجتماعيات في بلد لا يتجاوز سكانه 150 ألف نسمة ان جملة المواليد الحرام في مستشفًى واحد بهذا البلد بلغ في السنة الماضية 90 مولودا كلهم ممن رغبت امهاتهم في التخلص منهم وتركهم لايدي الضياع فكم يكون عدد المجهضين ؟ وكم يكون عدد المعدمين ؟ وقل مثل هذا في باقي المدن الأخرى ولا سيما العواصم الكبرَى . فإذا كانت هذه هي نتيجة التطور السريع الذي يفوق تطور المرأة الأوربية فاقبح بها من نتيجة ! ولا نظن ان المرأة المغربية الغيور على جنسها وعلى أمتها توافق على هذا التطور المقلوب أو تقره بحال .

فإذا كان هناك من اعداء للتطور النسوي المتحرر من قيود الدين والاخلاق فلا شك أن من يصطدمن بهم من

هؤلاء النساء المنحرفات المتهتكات لا النساء الشريفات المتخلقات .

وقال الباحث انه صدر في سنة 1952 مرسوم يحرم على المرأة مزاولة الوظائف العامة . وهذا خبر لم نسمع به قط . وان يكن صحيحا فلا شك ان الذين أصدروه هم الفرنسيون الذين كانوا مسيطرين على المغرب آنذاك . فحينئذ يكون أعداء التحرر النسوي هم السادة المستعمرون الذين جاءوا لتمدين المغرب وتحضيره وتدريبه على الحياة العصرية المتطورة .

ويشهد لذلك ما كان أقطاب الاستعمار إذ ذاك وضباط الاستعلامات يشنونه من الحملات على الأميرة عائشة التي كانت تتوقل في درجات التعليم وتضرب الأمثلة للفتاة المغربية على الأخذ باسباب التطور الحقيقي . واذكر من هذه الحملات مقالة بذيئة كانت احدَى المجلات المشبوهة كتبتها في هذا الصدد وهي تنعى على الأميرة جنوحها عن تقاليد المرأة المغربية وتدعي أن العلوم العصرية مما لا يوافق الدين على تلقينها للمرأة . وكنت رددت عليها بمقالة نارية بعنوان (تحية إلى الأميرة عائشة) .

أما قول الباحث ان العلماء استندوا في اصدار هذا

المرسوم إلى الآية الكريمة «الرجال قوامون على النساء» وان رجال القانون لا يوافقون على هذا التفسير المتشدد للنصوص الدينية ، فهو كلام متهافت لا يصدر من رجل ينتحل البحث العلمي .

وذلك لأن الآية لا تزيد على أن تثبت القوامة الطبيعية التي للرجال على النساء ، وهي قوامة ما تزال قائمة في بلاد الاسلام والمسيحية وحتَّى في البلاد الشيوعية والجميع يعترف بها وليس للعلماء ولا لرجال القانون تفسير لهذه الآية يخالف ذلك ولا يمكن أن يكون هذا التفسير سندا لمرسوم مثل الذي ذكر الباحث صدوره في المغرب عام 1952 .

ثم ان العلماء لا يملكون اصدار المراسيم وانما ذلك للحكومة ، فان كانت السلطة الاستعمارية المسيطرة إذ ذاك هي التي أصدرته فلا شك أنها حرفت الآية وغيرت معناها .

وان كانت الجهة التي أصدرت ذلك المرسوم هي الحكومة المغربية وعلى رأسها جلالة الملك محمد الخامس قدس الله روحه ، فان ذلك يناقض قوله بعد : ويجب التذكير بان محمد الخامس كان له فضل تطوير المرأة لا بوصفه ملك المغرب فحسب ولكن بوصفه أمير المؤمنين الخ .

وعلى كل حال فان هذا الاستجواب أشبه بان يكون حديثا صحفيا منه ببحث علمي . والأساس الذي انبنَى عليه وهو اشتغال المرأة المغربية ومزاولتها لمختلف الاعمال ظاهرة اجتماعية قديمة سابقة عن عهد الحماية وعصر النهضة . والباحث في ذلك يجب أن يرجع إلى التاريخ القديم ليعرف أن المرأة المغربية شغالة بطبيعتها ودورها في بناء المجتمع المغربي دور فعال .

وفي ميدان الصناعة بالخصوص نعرف أنه كان في مدينة فاس وحدها أكثر من 5000 امرأة ممن يشتغلن في الصناعات الحريرية فقط كالتطريز وضفر الحمالات (المجادل) ونسج المحارم وما إلى ذلك . ولم يكن بيت من البيوت ، لشريف أو مشروف ، غني أو فقير يخلو ممن يمتهن حرفة يدوية جميلة كزخرفة الشرابيل (أحذية النساء) وصنع جيوب المناطق وخياطة الملابس وما إلى ذلك . وكان صبيان الصناع والمعلمين هم الواسطة بين هؤلاء النسوة وارباب العمل مما كان يجعل أولئك النسوة يعملن في جو من الثقة والاحترام واطمئنان ازواجهن ورؤساء أسرهن لا نظير له اليوم حين اختلط الحابل بالنابل وانقلب المجتمع المغربي المحافظ رأسا على عقب . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

المرأة المظلومة
والمساواة المزعومة

راودتني قضية جاكلين كيندي سابقا على أن اكتب فيها غير ما مرة ، ولكني كنت أشيح بوجهي عنها لكثرة ما تناولتها الأقلام وابتذلها الكتاب . وقضية جاكلين لها جوانب عاطفية مثيرة ، كما لها جوانب واقعية حرية بالتدبر .

وبمزيد الأسف فان الذين خاضوا فيها — واللائي خضن كذلك — انما تناولوا الجوانب العاطفية منها ، واما الجوانب الواقعية فانهم تعمدوا أن يغفلوها ويتغاضوا عنها ، ولا أقول انهم لم ينتبهوا إليها ، لأنه يبعد جدا ان لا يكون فيمن دس أنفه في القضية من الرجال والنساء معا ، من لا ينظر بعين الواقع للملابسات والظروف التي أحاطت بالسيدة المعنية بالأمر والتي كانت تتجه إليها الأنظار من كافة أنحاء العالم .

ان مصرع زوجها بين يديها كان فاجعة أكثر من أن تتحملها امرأة ومع ذلك فقد قابلتها بجلد لا نظير له ، وان خروجها من البيت الأبيض قبل الأوان وبدون زوج كان شيئا محزنا يعز فيه الصبر ، والناس وان كانوا قد واسوها في المصيبتين ، وقدروا موقفها في الحالتين ، الا أنهم سرعان ما عادوا إلى طبيعتهم البشرية — لا الانسانية — يهمسون ويغمزون ويتحدثون فيما لا يعنيهم من أمر هذه المرأة واتصالاتها وعلاقاتها الشخصية وحركاتها وسكناتها وظعنها واقامتها.

والمؤسف في الأمر ان هذا الحديث يأخذ طريقه إلى النشر بمختلف وسائل الاعلام وتبدئ الصحافة فيه وتعيد ، غير ملتفتة إلى ما كان لها بالأمس القريب من الحرمة والحصانة ، لأن السد قد انهار والحامي قد سقط ، فلا حرمة ولا حصانة إذن !

وربما قيل ان هذه ضريبة الشهرة فلتكن ، وانما علينا كذلك أن ننظر لها من الجانب الآخر.

فهل لو كانت جاكلين هي المتوفاة وبقي كيندي أربع سنوات أرمل وكانت علاقاته ما كانت ، ولو بعد خروجه من البيت الأبيض ، تستطيع الأقلام ووسائل الاعلام أن تتناوله كما تناولت زوجه ، وتشهر به كما شهرت بها ،

وتضايقه حتَّى يضطر إلى التماس المخرج مثلما فعلت معها ؟

وسؤال آخر : هل كان كيندي في مثل هذه الحال ، أعني وفاة زوجه ، يبقَى أرمل ولا يتزوج قبل خروجه من البيت الأبيض ، وإذا تزوج ، وهذا سؤال ثالث ، هل كان العالم يقابل زواجه بمثل الضجة التي قابل بها زواج جاكلين ؟

اللهم لا ، اللهم لا ، اللهم لا ، في الأسئلة الثلاثة ! واذن أليست هذه المرأة مظلومة ؟ ونعني بالمرأة الجنس الذي يشمل جاكلين وغيرها .

والحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، حين جاء هذا الظلم من الغرب ومن العالم المسيحي ومن بلاد التمدن ، لا من العرب ، ولا من الاسلام ، ولا من الشرق المتخلف الذي لا قيمة للمرأة فيه كما يدعون .

فاين هي المساواة المزعومة التي يخربون بها بيتك أيتها المرأة المسلمة ويهدمون أخلاقك ويسلبونك عزك وكرامتك وسعادتك التي هي واقع لا خيال وحقيقة لا باطل وهبة سماوية لا خدعة أرضية .

لقد أنكر قوم زواج جاكلين من أصله ، وتقدم جوابهم .

وانكر آخرون زواجها من الملياري أوناسيس ولكن أليس لو تزوجت برجل فقير لقيل انها ستنفق عليه ميراثها وانه سيأكل مال أولادها ؟

ولعل أسوأ ما قيل عنها بمناسبة انصرام سنة 68 انها كانت امرأة هذه السنة ولكن من الناحية السلبية !

فلم هذا ؟ ألأنها تزوجت ؟ وتزوجت رجلا ملياريا ومسنا لا يتهم عليها من جهة الطمع ولا تتهم عليه من جهة أنها أرادت أن تعيش عيش المجون والاستهتار ؟

هذا هو احترامهم للمرأة أيتها الأخت المسلمة ، وهذه هي الحرية التي تتمتع بها المرأة عندهم ، حتَّى الزواج وبمنتهَى التدبير والتعقل ، ولجعل حد للشك والفضول ، يكون في حقها وصمة ، ولا يقطع عنها السنة السوء .

فقارني ذلك بمكانتك في المجتمع الاسلامي وما يحيطك الناس به من العطف والرعاية وما أسبغته الشريعة المحمدية عليك من الستر وأولته لشخصيتك من الاستقلال ورغبت فيه من زواجك وحضت على خلافة زوجك عند تأيُّمك بخير ، ومن ثم كان أفضل الرجال يسارعون إلى خطبتك حباً في حمايتك واحصانك ولم يكن قط في ذلك غضاضة عليك ولا وسيلة للنيل منك .

ولنضرب لك المثل بالسيدة عائشة بنت طلحة وهي من هي بيتا شريفا وعلما وأدبا واخلاقا وجمالا .. تزوجت مصعب بن الزبير وقتل كما هو معلوم فتزوجت عمر بن عبد الله التيمي ، وما نال ذلك من شرفها ولا من كرامتها شيئا . ومثلها السيدة سكينة بنت الحسين ، وناهيك بها منصبا وجمالا وفضلا وكمالا .. تزوجت مصعبا ثم عبد الله ابن عثمان بن عبد الله فمات عنها فتزوجت زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان ، ولم يعبها أحد بذلك ولا تنقصها . وكذلك أختها السيدة فاطمة بنت الحسين كانت عند ابن عمها الحسن المثنى بن الحسن السبط فلما توفي تزوجت بعبد الله بن عمر بن عثمان أخي زيد المذكور قبله فولدت له محمد بن عبد الله الذي كان يسمّى المذهب لجماله وكانت ولدت من زوجها الأول عبد الله الكامل المشهور والد ادريس الأول مؤسس الدولة الادريسية .

وغير هؤلاء كثير ؛ من عقائل العرب وسيدات المجتمع الاسلامي الراقي ، الذي كان يفهم المساواة على حقيقتها أي فيما تقتضيه طبيعة كل من الرجل والمرأة وما يناسب كلا الطرفين لا فيما يهوى بهما إلى الحضيض أو ينكس خلقهما فيردهما في حافرة الجاهلية الأولى ، بعد أن رفع الاسلام من حطيطتهما واتى بشريعة مثلى تمنع أي ظلم من أحدهما للآخر ، لأنها خولتهما حقوقهما كاملة ، وكالت

للمرأة خاصة بالمكيال الأوفَى فأعطتها من الاعتبار ما لم تحلم به قط فيما مضَى ، ولا يزال مقامها في الاسلام بالنسبة إلى كثير من الاحكام أرفع من مقام غيرها في أية شريعة أخرى ، وهذه هي المساواة الحقيقية التي ينبغي ان نحرص عليها ونبشر بها : فلا تجرفنا الدعايات الباطلة ولا نخجل أمام الترقي المدخول .

تلك المكارمُ لا قَعْبان من لبنٍ
شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أَبوالا

*

الاسلام أقوى رابطة فلماذا لا يتحد المسلمون؟

طلبت جريدة «آسيا» الاسبوعية لسان الحركة الاسلامية في باكستان من المؤلف كتابة كلمة للاسهام في العدد الخاص الذي تصدره للدعوة إلى نبذ أسباب الخلاف بين المسلمين وخاصة منهم العلماء. فكتب لها هذه الكلمة:

من طنجة في أقصى المغرب عند ملتقى البحرين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط، إلى جاكارطا في أقصى المشرق وعلى ساحل المحيط الهندي، يمتد عالم فسيح تقطنه شعوب مختلفة الأجناس والألوان واللغات، ولكنها تجمعها رابطة هي أقوى من كل رابطة، أقوى من الجنس واللون واللغة، فهي تومن بإله واحد، ونبي واحد، وتولي وجهها شطر قبلة واحدة خمس مرات في اليوم، وتجتمع على صعيد واحد في عرفة كل عام، وتكيف حياتها اليومية في البيت والشارع وفي المتجر والحقل والمصنع وفي الحضر والسفر بمقتضى تعاليم كتابها

الحكيم ، المنزل من السماء الذي هو الكتاب الوحيد الذي يحتفظ بنَفَس الرحمان .. هذه الشعوب هي التي تتكون منها الأمة الاسلامية ، وهذا العالم الفسيح هو الذي يسمَّى بالعالم الاسلامي .

ولقد لبث هذا العالم الاسلامي حقبة طويلة من الزمن موحد الاجزاء يخضع لحكومة واحدة ، كأنه وطن واحد وكان يحمل مشعل المعرفة والنور يقبس منه باقي سكان العالم اقباس العلم والحضارة ، ثم عدت عليه أحداث الزمن ففرقت أجزاءه ، وتعددت دوله وحكوماته ، وأصبح يعد في البلاد المتخلفة ماديا وأدبيا ، وهو الآن يتخبط في مشاكل عديدة ، مشاكل اقتصادية تجعل اقتصاده مكملا لاقتصاد غيره فهو تبع له ودائر في فلكه ، ومشاكل اجتماعية قلبت حياته رأسا على عقب ، اذ طبعتها بطابع التقليد لكل ما هو أجنبي عنه وجعلت منه مجتمعا مزيفا لا هو بالشرقي ولا بالغربي ، ناهيك بما يؤثره هذا الانقلاب في معنويات أبنائه وسلوكهم واعتقادهم ، ومشاكل سياسية أضعفت قوته وجعلته كما مهملا لا يؤبه به ، وهو لو شاء لكان قوة عالمية لها وزنها وقيمتها في توجيه السياسة الدولية وحفظ التوازن السياسي في المحيط الأممي .

ان منشأ هذا التخلف وبقاءه حتَّى بعد النهضة

الاسلامية الكبرَى التي أزاحت عن كاهلنا نير التحكم الأجنبي ، هو عدم تنظيم شؤوننا ووضع خطة موحدة للعمل على حفظ كياننا مستوحاة من تعاليم ديننا الاسلامي الحنيف الذي نهض بنا لما كنا نعيش عيشة جاهلية ، وجعلنا في مقدمة الأمم حضارة ورقيا ومنعة ، فكيف به اليوم وقد انفسحت أمامنا السبل للاستفادة من تقدم العلوم والفنون في العصر الحاضر الذي لم يأت بما يعاكس التيار التقدمي في الاسلام ؟

وانه لمن المؤسف جدا أن تكون البلاد التي هي بمثابة الوطن الواحد ، قد افترقت طرائق قدداً ، فلم تكتف بانها أسست حكومات ودولا هنا وهناك ، بل انها قد اتخذت اتجاهات مختلفة بعضها يعادي بعضا ، في حين أن هناك بلاداً لم تكن في يوم من الأيام وحدة سياسية ، وليس بينها من الروابط الروحية والتاريخ المشترك ما بين بلادنا ، وهي تجمعها وحدة سياسية واحدة وتؤلف بينها المصالح المتبادلة ، حتَّى انها لا تتخذ موقفا من الأحداث العالمية ولا تنهج نهجا في الاقتصاد والسياسية وما إلى ذلك الا بمشاورة بعضها لبعض واصفاق كلمتها على ذلك ، وربما عقدت المؤتمرات الدورية لتنسيق سياستها وتوحيد خطتها فيما ينزل بها من أحداث وما يعرض لها من مشاكل .

وحسبنا بدول الكومنولث البريطاني مثالا على صحة ما نقول .

اما نحن المسلمين فان ما بيننا من الروابط المعنوية والمادية وما نعانيه من مشاكل متشابهة ، ونستهدف له من أخطار متلاحقة ، هو أعظم من كل الروابط والمصالح التي تجمع بين هذه الدول ، وكان حريا ان يجعلنا كتلة واحدة وصفا متراصا في وجه الأحداث والخصوم ، وان يعيد جامعتنا السياسية أقوَى مما كانت عليه يوم كنا دولة موحدة عظيمة مترامية الأطراف ، لكننا ويا للأسف لم نعمل بأوامر ديننا الذي يقول في احدَى آيات كتابه الحكيم «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» ولا أخذنا بما يوجبه العقل والتدبير والنظر السديد من تنظيم علاقاتنا السياسية وتوحيد كلمتنا وتكتيل جهودنا حتَّى نقوَى على دفع الضيم عن قومنا وبلادنا ، وفرض وجودنا على الكتل الدولية المتعارضة المتحكمة بمصائر الأمم والشعوب . ولعل أعظم دليل على تخاذل المسلمين هو موقفهم من قضية فلسطين الذي أذهب كل ما بقي لهم من هيبة في النفوس وجعلهم مثلا يضرب في الاستكانة والذل والهوان ، فتحقق فيهم قول الرسول ﷺ يوشك أن تتداعى عليكم الأمم تداعي الأكلة على القصعة ، قال الصحابة .. أو

من قلة بنا يا رسول الله ؟ قال الرسول .. لا ، بل أنتم كثير ، ولكن غثاء كغثاء السيل .

اننا الآن مدعوون لنبذ أسباب الخلاف بيننا ما كانت ، الخلاف السياسي بين القادة والزعماء ، والخلاف المذهبي فيما بين المشايخ والعلماء لخوض معركة الوحدة الاسلامية وانشاء رابطة دول العالم الاسلامي دفعا للضيم المحيق بالمسلمين وردا للعدوان الذي نزل بأراضيهم المقدسة ، واحقاقا للحق وابطالا للباطل في كل قضية تتساند فيها قوَى الشر والطغيان ، وفي كل موقف يتخذ من قبل المستعمرين القدماء والجدد «ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز» .

☆

ملكية وجمهورية

من تلاعب الشيطان بالمسلمين وخاصة منهم العرب . ان شغلهم بالقشور عن اللباب ، وبالعرض عن الجوهر ، فاقبالهم على المدنية الحديثة انما ينصب على مظاهرها الفارغة من لباس وغطاء رأس ، وأدوات التجميل بالنسبة للنساء ، ولعب الأطفال ، وقطع الأثاث البراقة اللامعة ، حتّى لقد يخرج الرجل الشيء الثمين القيم من مخلفات آبائه وأجداده ، يبيعه للسائح الأجنبي ، ويستبدل به هذه المصنوعات الرخيصة التي تنتج بغير عد ولا حساب ، فيكون أغبن من الشاعر مسلم الخاسر . الذي باع مصحفه واشترَى طبلا لولده !..

ولقد نشبت معركة حامية في تركيا وفي مصر بشأن الطربوش والقبعة ، وأيهما أوفق بالرجل المتمدن وأدل على التقدم ، وذلك في خلال الثلاثينيات من هذا القرن .

ويأخذ الانسان العجب حين يرَى الأجنبي في البلاد

الاسلامية يتأمل الآثار القديمة ، ويلتقط لها صورا يحتفظ بها كأعز الذكريات لزيارته لهذه البلاد ، في حين يرَى من نعنيهم يتهالكون على ارتياد المسارح والملاهي في البلاد الأجنبية التي يزورونها ، ولا يعنون الا بالسطحيات من الأمور .

وينكب الأجنبي على أحدث المبتكرات العلمية والصناعية يدرسها ويختبرها ، ويكون عنها فكرة ما بقدر معرفته وتطلعه للاستفادة . اما مواطنونا واخواننا العرب والمسلمون . فان أكثرهم يمر بها مرا ولا تلفت نظره ، الا أن يعبر عن اعجابه المتناهي بالعجز والقصور .

ومن هذا القبيل الضجة التي تثار حول توحيد الاعياد الدينية ويوم الصيام والافطار في العالم الاسلامي ، اعتبارا بان اختلاف المسلمين في ذلك ينافي الوحدة الاسلامية المنشودة . كأن ما ينافي هذه الوحدة ، هو فقط الاحتفال بالاعياد والأكل أو الامساك عنه في يومين مختلفين ! .

أما اختلاف أنظمة الحكم والسياسة والتربية والاقتصاد والدفاع ، واعتناق المذاهب المتعارضة مع الاسلام ، ومع ما يأخذ به هؤلاء وأولئك ، وتولي قوم لدهاقنة الغرب ، وآخرين لدهاقنة الشرق ، والمسارعة في

هوَى كل ، ولو بجدع أنف الاسلام والمسلمين ؛ فانه لا ينافي الوحدة الاسلامية في نظر أصحابنا ، ولذلك نراهم انما يحرصون على وحدة الاعياد والصوم والفطر ، ولا يتمثلون الوحدة الا فيها .

وكأن أسلافنا لما كانوا لا يأبهون لهذا المظهر ، حتَّى في القطر الواحد . منذ عهد الخلفاء الراشدين ، والدول الاسلامية الكبرَى التي انتظم في طاعتها العالم الاسلامي كله من مشرقه لمغربه ، كانوا متفرقين غير متحدين ، فيا لها من وحدة سهلة هينة ، ومع ذلك أخطأها أولئك السابقون الأولون !..

ولعل أخطر ما تتمثل فيه تفاهة الاهتمام ، والتعلق بالسفاسف ، هو هذا النزاع حول الملكية والجمهورية ، من أنظمة الحكم التي قامت في البلاد العربية والاسلامية ، بعد تقسيمها واستقلال كل بلد منها عن الآخر ، فقد استفحلت الخصومة في هذه القضية ، وخصوصا بعد الحرب العالمية الثانية ، حين قوى العزم وانتشر الوعي ، واشتد التطلع نحو حياة العزة والكرامة ، وتجندت الشعوب العربية والاسلامية ، لتصفية آثار الغزو الاستعماري ، وبناء الكيان العربي ، ودعم الوحدة الاسلامية ، فلم نشعر الا وقد اشتبك الاخوة وابناء

العمومة ، في حرب باردة ينال بها بعضهم من بعض . ويكيلون التهم لقادتهم وزعمائهم تارة بصفة شخصية . وأخرى بصفة رسمية ، والقصد هو ابعاد الشقة وتعميق الخلاف ، حتّى لا يتحقق التقارب وجمع الكلمة . وكانت الملكية هي الهدف الأول في الحكومات الجمهورية ، والعكس في الحكومات الملكية ، وشغل الناس بهذه المهاترات ، واستغلت طيبوبة الجماهير ، فأصبح العامة إلبا على حكامهم ، وخصوما لقادتهم وزعمائهم .

وهنا انقلبت المعركة إلى حرب ساخنة ، وتدخل سافر بالقوة ، للاطاحة بعروش ورياسات . وعوض أن تتضافر الجهود والقوَى لصد العدو الدخيل ، أصبح البأس شديدا بين أبناء الأمة الواحدة ، وعملت المخابرات الأجنبية ما في وسعها للتحريض والتضريب بين الاخوة الاشقاء ، واستقطاب العناصر المتحركة في البلاد نحو سياستها واتجاهها ، فتكونت الجبهات والتكتلات المتعارضة من يمينية ويسارية ، وفرض باطلا ان كل ملكية يمينية ، وان كل جمهورية يسارية ليستحكم العداء بينهما ، ولا يمين ولا يسار ، وانما هي الأنانية . والمصالح الشخصية ، ويد الاستعمار الجديد تعمل في

خفاء ، لتعوق المسيرة ، وتستغل الطبقات الشعبية لتمكين نفوذها وسيطرتها .

وهكذا اشتعلت الحرب الأهلية في بعض الأقطار العربية ، بضع سنين ، يمدها قطر آخر شقيق بالجند والعتاد ، مما يستورده من بلاد أجنبية يهمها أن تنشر مذهبها وتوطد قدمها في الشرق العربي ، ولا هدف الا الاختيار بين النظام الملكي والنظام الجمهوري ، وكم ازهقت في ذلك من أرواح ، وكم عانَى الناس من آلام ، والنتيجة بؤس وشقاء وجرح عميق في جسم الشعب المعني بالأمر ، لم يندمل بعد ، وقد مرت عليه سنوات ، واهدار للقوة ، وتبديد للطاقة ، في الشعب المتدخل ، ثم نكسة معنوية ، أعقبتها نكسة مادية لم تقل عثرته منها إلى الآن !..

كل هذا والمعركة الحقيقية ضد العدو الصهيوني الجاثم على صدر الأمة منسية أو متروكة للحل السلمي الذي ينتظر أن تتكرم به علينا اسرائيل وحلفاؤها الأوفياء !..

فأي عبث هذا الذي استبد بتفكير العرب ، واستنفد مجهودهم الحربي ، سنين عديدة ، ولم يتقدم بقضيتهم خطوة واحدة ، ان أحسنا التعبير ولم نقل انه أخرها خطوات ؟..

وماذا كسبناه في عهد الجمهورية مما لم نكسبه في عهد الملكية ؟

أفيقال بعدئذ ان الجمهورية هي سفينة النجاة ، وان الملكية هي الطوفان ؟

ان ما ينتقد على الملكية من الاستبداد والتعالي والاستئثار بمنافع البلاد لنفسها أو لمحسوبيها ، كله قد مارسته الجمهوريات الناشئة وتلبست به ، وربما زادت عليه ، وان كانت لا تفتأ تندد بمساوي الملكية وعهدها المظلم .

اما الصالح العام ، وتطور البلاد ، وازدهار الاقتصاد ، ورفاهية المواطن ، وخصوصا في النظم التي تصف نفسها بالاشتراكية ، فسل عنه المواطنين الذي انقذتهم الجمهوريات من تسلط الملكية !..

ولا نطيل الكلام في هذا المعنَى ، ليلا يظن اننا ندافع عن الملكية ، ونحن انما نريد أن يستيقظ المسلمون ، فلا الملكية ولا الجمهورية هي الغاية من نوع الحكم ، فقد يجور الرئيس ويعدل الملك ، والعكس أيضا صحيح . والمدار على يقظة الشعب وقوانينه الأساسية ، ودستور الحكم الذي يعتمده ، وهو عندنا معشر المسلمين ، الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من

بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وما نستمده منه من قواعد وأنظمة وأحكام ، لا صلاح ولا علاج لأدوائنا إلا في التمسك بها والخضوع لها قولا وعملا . والسهر على تطبيقها من طرف المتولين ، والقيام في وجههم إذا حادوا عنها ولو قيد شبر ، وليكن نوع الحكم حينئذ ما كان ، فالعبرة بالمعنَى لا بالصورة ، وبالروح لا بالجسد .

والمهم أن تزول الأحقاد فيما بين القادة والزعماء ، ويتحد الصف ، وتصفق الكلمة على حماية الكيان ، واعلاء البنيان ، حتَّى يكون المسلمون يدا على من سواهم ، وخير أمة أخرجت للناس ، كما تريد لهم السنة والكتاب ، وليس بمانعهم من الاتحاد أن يكون فيهم ملوك ورؤساء ، فاليد العليا لمن عمل وجد وأخلص ، وهي اليوم هنا وغدا هناك . وانما يمنعهم أن يتحرش بعضهم ببعض ، وان يصرفوا نظرهم عن معركة المصير ، ويتلهوا بالمعارك الجانبية التي شتتت شملهم وهتكت حرمتهم وأذهبت هيبتهم ، وجعلتهم مثلا في الخلاف والفرقة والخذلان .

وما قلته في الجمهوريات التي خلفت الملكية ، لم أقصد به التشنيع وانما هو الواقع الملموس ، ولو كانت هناك ملكية خلفت احدَى الجمهوريات لما ظننت أن الواقع يكون غير ذلك ، فإني لا أزكي على الله أحدا .

العمل الفدائي
في نظر الاسلام

للفدائية أصل أصيل في الاسلام ، ومواقف عظيمة في الانتصار لدعوته ، والانتصاف من خصومه ومناوئيه . بدأت قبل أن يؤذن للمسلمين بالقتال ، واستمرت بعد تشريع الجهاد فكانت في بعض الأحيان تغني غناء الجيش العرمرم ، وتكفي مؤونة حرب طاحنة كان على المسلمين ان يخوضوها مع عدوهم ويتكبدوا فيها خسائر فادحة .

وعلى كل حال فقد قام المسلمون الأولون من الصحابة الكرام ، باعمال فدائية جريئة في سبيل نصرة الاسلام وخذلان المتربصين به من مشركين ويهود وذلك طبعا باذن رسول الله ﷺ ومعرفته واقراره . فهي اذن سنة عملية من سنن الدين ، ينتصر بها المومنون للحق ويقاومون الباطل ، لاسيما عند مكاثرة العدو لهم ، وتفوقه

عليهم في وسائل القتال ، كما هو الواقع الآن في معركتنا مع الصهيونية المجرمة المسندة بجميع قوَى الشر والطغيان في العالم .

ومع هذا الدليل الواضح من السنة النبوية ، هناك أدلة عامة من القرآن الكريم على مشروعية الفدائية ودخولها في عموم الأمر بالجهاد والاستعداد له وتدبير خططه بكل ضبط وحزم ، دفعاً للظلم والاعتداء ، وحماية لأرض الاسلام من السيطرة الأجنبية ، وحفاظا على حياة العزة والكرامة التي لا يرضَى الاسلام لاتباعه غيرها .

ففي الآية الكريمة التي أذنت للمسلمين بالقتال بعد انتظار طويل ، يقول الله عز وجل :

«اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض ، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز» .

فالاذن بالقتال كان لاخراج المسلمين من ديارهم بغيا وعدوانا ، تماما كما هو الحال بالنسبة للفلسطينيين اليوم . وتعليله بانه دفاع مشروع إذا لم يقم به المعنيون بالامر ،

فان مما يترتب على ذلك هدم أماكن العبادة من قبل العدو المغير ، يشير بكيفية صريحة إلى ما هو واقع الآن في القدس الشريف من الاعتداء على المقدسات الدينية إلى حد احراق المسجد الأقصَى من طرف الصهيونيين ، وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين ومسرى النبي عليه السلام وقوله تعالى في آخر الآية «ولينصرن الله من ينصره» أي ينصر دينه ونبيه ، وهو صادق بجميع وجوه النصر من الجهاد بالنفس والمال وغيرهما ، ومن ذلك ولا شك العمل الفدائي الذي برهن القائمون به على ايمان قوي وشجاعة نادرة وباعوا أنفسهم بيع السماح في سبيل نصرة الحق واعلاء كلمة الله . والتعبير بمن في الآية ، وهي من صيغ العموم تصدق بالفرد والجماعة ، كفيل بدخول الفدائيين جماعات وافرادا ، وذلك من بلاغة القرآن التي لا تطال ، كذلك التعقيب بقوله «ان الله لقوي عزيز» هو في منتهَى البلاغة لما فيه من مزيد التأكيد للنصر الموعود . بكونه من القوي العزيز.

ويقول تعالى في آية أخرى : «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون» فأمر المسلمين بالنفير إلى القتال في سبيله على كل الأحوال كما يتبين لنا من تفسير قوله «خفافا

وثقالا» قال الحسن والضحاك ومجاهد وقتادة شبانا وشيوخا ، وعن ابن عباس نشاطا وغير نشاط ، وقال عطية العوفي ركبانا ومشاة ، وقال أبو صالح خفافا من المال أي فقراء وثقالا أي أغنياء ، وقيل خفافا من السلاح أي مقلين منه وثقالا أي مستكثرين منه . وقال الحكم بن عتيبة مشاغيل وغير مشاغيل ، وقال مرة الهمداني أصحاء ومرضَى ، وقال يمان بن رباب عزابا ومتأهلين . وقيل خفافا من حاشيتكم واتباعكم وثقالا مستكثرين بهم ، وقيل خفافا مسرعين خارجين ساعة سماع النفير وثقالا بعد التروي فيه والاستعداد له .. ذكر هذه الوجوه كلها الامام البغوي في تفسيره[1] فأيها لا يقع على الفدائيين ، وهي تكاد لا تتحقق الا فيهم ؟

وفي آية ثالثة يقول تعالى واصفا ما يلقاه المجاهدون في سبيله من عنت ومشقة ، وما أعد لهم لقاء ذلك من عظيم الأجر والثواب : «ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطأ يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ، وما كان المومنون لينفروا

---

(1) تفسير البغوي بهامش تفسير ابن كثير ج 4 ص 175 – 176

كافة فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» .

فذكر أعمالا أول ما يدخل فيها اليوم العمل الفدائي الذي يرمي إلى احباط خطط العدو واضعاف قوته واستنزاف مجهوده الحربي ، وتبديد ثروته واتلافها وتكبيده أكثر ما يمكن من الخسائر المادية ، مع خسائره في النفوس والأرواح ، وذلك هو ما عبرت عنه الآية الكريمة بهذا التعبير الفذ الجامع «ولا يطأون موطأ يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا» .

واما قوله تعالى «وما كان المومنون لينفروا كافة» فهو وان كان يدل على مناوبة القتال بين المسلمين وعدم مطالبتهم به كافة في كل الأحوال ، فانه يصدق بالعمل الفدائي الذي ينفر فيه طائفة من كل فرقة يقومون بعمليات الاستطلاع وضرب استحكامات العدو وغير ذلك مما تبلغه امكاناتهم المحدودة حتَّى يستعد المسلمون للحرب وينفروا كافة ، كما قال عز وجل «فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة» الآية .

وبالجملة فان العمل الفدائي مشروع كتابا وسنة وإجماعا ، وهو ضرب من الجهاد الذي حض عليه الشرع ورغب فيه وأوجبه عينيا على كل مسلم عند مهاجمة العدو للوطن الاسلامي ولا شك أن القائمين به يعتبرون

من السابقين الأولين الفائزين بفضيلته المستحقين للمدح الذي خص الله به سلفهم في قوله :

«لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنَى والله بما تعملون خبير» .

هذا ونستعرض بعض وقائع الفداء في تاريخ الاسلام ، من عهده ﷺ فما بعد ، ليتحقق ما قلناه من اجماع المسلمين عليه ، ولنستوحي منها العبرة في انتصار الحق وان قل أعوانه ، واندحار الباطل وان كثر اخدانه ، ضاربين بذلك المثل العملي لهذه الحركة الفدائية المباركة التي انبعثت في الأرض المقدسة ، لتطهيرها من رجس الصهيونية وحلفائها من الاستعماريين والصليبيين القدماء والجدد .

ولعل أول فدائي في الاسلام هو علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . فكلنا نعلم أن النبي ﷺ خلفه لينام في فراشه ليلة الهجرة ، تضليلا للمشركين الذين اجمعوا أمرهم على قتل النبي ، فكانوا ينظرون ، من خصاص البيت فيرونه مسجى على الفراش فيطمئنون على وجوده هناك ، حتَّى نهض في الصباح ورأوه انه علي ، فسقط في أيديهم ، وسألوه أين ذهب ؟ فقال لا أدري . ومما لا شك فيه أنه رضي الله عنه عرض نفسه في تلك الليلة

لخطر محقق فداء للنبي عليه السلام ، إذ كان من الجائز أن يكبسوا البيت ويغتالوا النائم على الفراش ظنا منهم انه طلبتهم ، بل كان ذلك متوقعا في كل لحظة ، ولكن الله عز وجل حماه وهو نائم تحت مضارب سيوفهم كما حمَى نبيه بمرأى منهم ومسمع في الغار[1] .

ومن أعمال الفدائية التي وقعت على عهده ﷺ قتل كعب بن الأشرف اليهودي ، وكان يؤذي النبي والمسلمين بهجائه لهم وبتحريض قريش عليهم ، فقال النبي ﷺ من لكعب بن الأشرف فانه قد آذَى الله ورسوله ؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال يا رسول الله أتحب أن أقتله ؟ قال نعم . قال فأذن لي أن أقول شيئا (يعني مما يتقرب به إلى كعب وان كان بحسب الظاهر طعنا في الاسلام) قال النبي قل ما بدا لك . فأتاه محمد بن مسلمة هو ونفر من الأنصار فيهم أبو نائلة أخو كعب من الرضاع . فقال يا كعب ان هذا الرجل (يعني النبي) قد سألنا صدقة وانه قد عنَّانا (أي كلفنا ما لا نطيق) واني قد أتيتك استسلفك . قال كعب وأيضا والله لتملنه . قال محمد بن مسلمة إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتَّى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه . وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين من تمر . قال كعب نعم ارهنوني فقالوا أي

---

(1) انظر سيرة ابن هشام

شيء تريد؟ قال أرهنوني نساءكم. قالوا كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال فارهنوني أبناءكم. قالوا كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين؟ هذا عار علينا. نرهنك السلاح، فقبل.

وواعده محمد بن مسلمة فجاءه ليلا هو وأصحابه فدعوه وهو في حصنه فقالت له امرأته أين تخرج هذه الساعة؟ فقال انما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة وقال ابن مسلمة لأصحابه إذا ما جاء فانني آخذ بشعره اشمه، فإذا رأيتموني استمكنت منه فدونكم فاضربوه. فنزل إليهم وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال ابن مسلمة ما رأيت كاليوم ريحا أطيب، قال كعب عندي أعطر نساء العرب، قال أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال نعم. فشمه ثم أشم أصحابه، وذهب يفعل ثانية فأخذ برأسه وقال دونكم فأضربوه فضربوه بأسيافهم فقتلوه[1].

وأغرب من هذه الواقعة وأشد تمثيلا لاعمال الفدائية، قصة رافع بن أبي الحُقَيق اليهودي أيضا، وكان صاحب حصن بأرض الحجاز، وكان يؤذي الرسول ﷺ ويعين عليه، فبعث إليه النبي رجالا من الأنصار وجعل عليهم عبد الله بن عتيك. فانطلقوا حتَّى

---

(1) صحيح البخاري بشرح القسطلاني ج 6 ص 283.

دنوا من الحصن ، فقال لهم عبد الله امكثوا أنتم حتَّى أنطلق انا فانظر . قال فتلطفت ان أدخل الحصن ففقدوا حمارا لهم ، فخرجوا بقبس يطلبونه ، فغطيت رأسي ورجلي كأني أقضي حاجة ، ثم نادَى صاحب الباب من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن ، فتعشوا عند أبي رافع وتحدثوا حتَّى ذهبت ساعة من الليل ثم رجعوا إلى بيوتهم ، فلما هدأت الأصوات ولا اسمع حركة خرجت قال ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كوة ، قال فأخذته ففتحت به باب الحصن قلت ان نُذر بي القوم انطلقت على مهل ، ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهرها ثم صعدت إلى أبي رافع في سلم ، فإذا البيت مظلم قد طفى سراجه ، فلم أدر أين الرجل ، فقلت ياأبا رافع قال من هذا ؟ قال فعمدت نحو الصوت فأضربه بالسيف ، وصاح فلم تغن الضربة شيئا . قال ثم جئت كأني أغيثه فقلت مالك ياابا رافع ؟ وغيرت صوتي . فقال الا أعجبك ؟ لامك الويل ، دخل علي رجل فضربني بالسيف . قال فعمدت له أيضا فأضربه أخرى فلم تغن شيئا ، فصاح وقام أهله فجعلت أرفع السيف عليها ثم اذكر نهي النبي ﷺ عن قتل النساء فأكف عنها . قال ثم ضربته

فقتلته ، وخرجت دهشا حتَّى أتيت السلم أريد أن أنزل فأسقُط منه ، فانخلعت رجلي فعصبتها ثم أتيت أصحابي أحجل ، فقلت انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ فاني لا أبرح حتَّى أسمع الناعية . فلما كان في وجه الصباح . صعد الناعية فقال انعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز ، قال فقمت أمشي ما بي علة ، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا رسول الله ﷺ فبشرته [1] .

فهذا فدائي صميم دبر خطة ونفذها من غير أن يحتاج إلى معونة من أصحابه ، وكان ثبت الجنان حاضر البديهة ، بحيث لا تعييه الحيل ولا يثنيه الدهش عن انفاذ ما مضَى له ، فلو أنه تدرب في معسكر للفدائيين لما فعل أكثر مما رأينا . وبه وبأمثاله انتصرت دعوة الاسلام على خصومها وخضدت شوكة المناوئين لها ، على كثرتهم وقوتهم وقلة اتباعها وضعفهم فصدق عليهم قوله تعالى «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله» .

ويضيق المقام عن تتبع الوقائع من هذا القبيل . لاسيما وهي كثيرة والمراد اعطاء المثال فقط . وقد بقيت هذه الاعمال قدوة حسنة للمسلمين عبر تاريخهم الطويل في مقاومة المغيرين الأجانب على بلاد الاسلام ، ومن أغرب ما يسمع في ذلك قصة وقعت في المغرب العربي ،

---

(1) المصدر السابق ، نفس الجزء ص 287

خلال القرن السادس وقت ان اشتدت وطأة الصليبيين على بلاد الاسلام في المغرب والمشرق ، وبدأت موجة الاكتساح الأروبي ترتمي على الشواطئ المشرقية والمغربية . وكان ممن انبسط سلطانه في تلك الأثناء هؤلاء الملوك النورمانديون الذين انتزعوا جزيرة صقلية من يد المسلمين ، وامتدت سلطتهم إلى بعض بلاد ايطاليا وشمال افريقيا ، ولا سيما في أيام عميدهم وداهيتهم رجار الثاني الذي كان يوصف بالحنكة السياسية والتسامح الديني . ولما توفي خلفه في ملكه ابنه غليوم ، وكان سيء السيرة فاسد التدبير . فخرج عليه عدة حصون ومدن من صقلية وافريقية وغيرهما .

وكان أول من أظهر الخلاف عليه عمر بن أبي الحسين الفرياني صاحب مدينة صفاقس بالشاطئ التونسي وكان رجار قد استعمل عليها لما فتحها أباه أبا الحسين ، وكان فيما يحدثنا ابن الأثير من العلماء الصالحين فأظهر العجز والضعف وقال استعمل ولدي فاستعمله ، وأخذ أباه رهينة إلى صقلية . قال ابن الأثير فلما أراد المسير إليها قال لولده عمر اني كبير السن وقد قاربت أجلي ، فمتَى أمكنتك الفرصة في الخلاف على العدو فافعل ولا تراقبهم ولا تنظر في أني أقتل ، واحسب أني قد مت ، فلما وجد ابنه الفرصة دعا أهل المدينة إلى الخلاف وقال تطلع

جماعة منكم إلى السور وجماعة يقصدون مساكن الفرنج ويقتلونهم. فقالوا له ان سيدنا الشيخ والدك يخاف عليه، فقال هو أمرني بهذا، وإذا قتل بالشيخ ألوف من الأعداء فما مات. فلم تطلع الشمس حتَّى قتلوا الفرنج عن آخرهم. وكان ذلك أول سنة احدَى وخمسين وخمسمائة.

ولم يسمع بقية الولاة بحركة عمر الفرياني حتَّى اتبعوه. فثار أبو يحيَى بن مطروح بطرابلس، ثم محمد بن رشيد بقابس، وسار عسكر عبد المومن بن علي وكان أول ما بدأ امره بافريقية — إلى بونة فملكها، وخرج جميع افريقية عن ملك الفرنج ما عدا المهدية وسوسة. وأرسل عمر المذكور إلى أهل زويلة وهي مدينة بينها وبين المهدية ميلان، يحرضهم على الوثوب بمن عندهم من الفرنج ففعلوا وحاصروا المهدية وقطعوا عنها الميرة، فاتصل الخبر بغليوم، فأحضر أبا الحسين وعرفه ما عمل ابنه وأمره أن يكتب إليه ينهاه عن ذلك ويأمره بالعودة إلى طاعته ويخوفه عاقبة فعله. فقال أبو الحسين من أقدم على هذا لا يرجع بكتاب. فارسل غليوم إلى عمر رسولا يتهدده ويأمره بترك ما ارتكب، فلم يمكنه عمر من دخول المدينة يومه ذلك. ولما كان من الغد خرج أهل البلد جميعهم ومعهم جنازة، والرسول يشاهدهم

فدفنوها وعادوا . فأرسل عمر إلى الرسول يقول له هذا أبي قد دفنته ، وقد جلست للعزاء فاصنعوا به ما أردتم . فعاد الرسول إلى غليوم فأخبره بما صنع عمر فأخذ أباه وصلبه . فلم يزل يذكر الله حتَّى مات[1] .

هذه قصة من أغرب ما يسمع كما قلنا ، في بطولة الفدائيين وتضحيتهم من أجل تحرير الوطن والانتقام من الدخلاء المسيطرين . وغرابتها انما جاءت من كون الفدائي فيها أميرا والد أمير وفي سن متقدمة من عمره ، فلا الامارة أغوته ولا السن ثنته . وإذا كان لكل قاعدة شذوذ فان هذا الأمير هو الشذوذ الذي يَرِد على قاعدة الحديث القائل يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان ، الحرص وطول الأمل .

والحق ان هذا ليس بشذوذ ، وانما هو الايمان الذي يزدري بالدنيا وما فيها إذا تعارضت مع المطالب العليا للنفس الشريفة ، وهو مقصود الحديث الشريف الذي خرج مخرج الخبر ، والمراد به الطلب والحض على عدم الحرص وعلى تقصير الأمل .

ذلك هو العمل الفدائي في نظر الاسلام حكما وعملا . وقد كانت نتيجته دائما ، في القديم والحديث

---

(1) تاريخ ابن الأثير ج 11 ص 91

هي تدويخ العدو ودحره ورده عن أعقابه مهزوما مفلولا.. ففي المغرب العربي ما أطاح بصرح الاستعمار الفرنسي على عظم تجهيزاته وقوة استحكاماته الا المقاومة الفدائية التي أقضت مضجعه وجعلت الجنة التي حلم بها في هذه الأرض الطيبة نارا مستعرة لا يقر له فيها قرار، حتَّى استسلم والقَى باليد وذهب إلى غير رجعة. وكذلك سيكون مآله بحول الله في الأرض العربية، فان حركة الفداء المباركة قد هزت كيان اسرائيل بالفعل وأصبح قادة هذه الدويلة المغرورة يحسبون لها ألف حساب. وما ذلك إلا للعزم والتصميم اللذين نزل بهما رجال هذه الحركة إلى الميدان والثقة بالنفس واليقين في الله عز وجل وقطع النظر عن كل المعوقات والمثبطات، ومن أعظمها ما يسمى بالأمم المتحدة ومجلس الأمن والوسطاء السابحين في فلكها، والله غالب على أمره، وهو سبحانه واهب القُوَى والقدَر، نعم المولى ونعم النصير.

*

وكيف أخاف ما أشركتم ؟

جَاءني ، وهو رجل مومن حافظ لكتاب الله . يشتغل بالتجارة ، فقال يا فلان : وقعت في ورطة شغلت بالي .. وذلك أن طائفة من هؤلاء المتفقّرين المنتسبين للشيخ فلان ، وذكر اسما كبيرا من أسماء المشائخ المشهورين ، مرت بي ، وهي تتسول بعَلم الشيخ المذكور ، والمقدم يتوسطها ، والطبال والزمار يكتنفانها ، وعدد كبير من النساء والاطفال يتبعها ، فاعترضت سبيلي وطلبت مني هدية للشيخ ، وجعل المقدم يدعو ، والجماعة يؤمنون ، فقلت : ما عندي شيء . فألح علي المقدم ، فدفعته وكان قد أمسك بي ، وقلت والله لا أعطيكم شيئا !... فاغتاظ وجعل يدعو علي ، ويستنجد بالشيخ للانتقام مني ، كما أهنته بزعمه وأهنت عَلمه وطائفته .

وسكت ، فقلت : وماذا بعد ذلك ؟ فقال : لقد ذهبت لحال سبيلي ، وأنا منفعل شديد الانفعال من هذا

الموقف الذي اضطررت إليه ، ثم فكرت فيما عسَى أن يصيبني من أذَى بسبب دعاء الرجل علي ، وتوسله بالشيخ في ذلك ، فجئت إليك أبثك أمري .

فقلت له : هون عليك ، ولا تخف من شيء ، فانك لم تفعل إلا ما هو واجب ومطلوب منك ، وعمل هذه الطائفة انما هو شعوذة ودجل لا يقرهما الشرع وليسا من الدين في شيء ، ولو قدر للشيخ الذي تنتسب إليه أن يبعث ويرَى عملها لتبرأ منها وطردها أعنف الطرد . فانه ما كان يرضَى بالسؤال له ولا لأولاده في حياته ، فكيف بعد موته ؟ ولم يكن له علم ولا شارة ولا طبل ولا مزمار ، لأنه رحمه الله كان من العارفين بالله المجتهدين في عبادته وطاعته . والاعلام والأبواق شعار البطالين ، وشأن المهرجين !..

ثم قلت له : وما اهتمامك بدعاء الرجل عليك وتوسله بالشيخ ، وأنت تعلم أنه لا ضار ولا نافع إلا الله عز وجل ؟ ألست تقرأ القرآن ، وقد قال النبي ﷺ من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحَى إليه ، لا ينبغي لقارئ القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل ، وفي جوفه كلام الله .

ثم استقرأته آية محاججة ابراهيم عليه السلام لقومه ، فقرأها ، وهي قوله تعالى :

«وحاجه قومه ، قال أتحاجوني في الله وقد هدان . ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا ، وسع ربي كل شيء علما ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ؟ ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ، فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون ، وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم) .

وقلت له : إن سيدنا ابراهيم عليه السلام لما قال لقومه «إني بريء مما تشركون» جعل قومه يحاجونه في الايمان بالله عز وجل وفي توحيده ، فقال لهم : كَيف تحاجونني وقد هداني الله عز وجل إلى الحق وإلى الطريق المستقيم ! فجعلوا يخوفونه ان تصيبه أصنامهم التي يعبدونها من دون الله ، بضر أو أذَى ، فقال لهم : إني لا أخاف ما تشركون به ، ولن يصيبني الا ما كتب الله علي ، «وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون انكم أشركتم بالله ؟» .

وهذه حجة قاطعة ، مزيلة لكل شبهة ، إذ كَيف يصح أن يخاف الانسان من أذَى الأصنام والأوثان التي لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، ولا يخاف من الله عز وجل أن يشرك معه غيره ، وهو الواحد الأحد ، الذي لا

شبيه له ولا نظير ، ولا شريك ولا ظهير ، وقد توعد على الشرك به أشد الوعيد ، وأخبر انه لا يغفر لمن تلبس به ، ويغفر ما دونه لمن يشاء ؟ ..

فأي الفريقين اذن أحق بالأمن من العذاب وارجَى لرحمة الله ؛ هل هو فريق المشركين أو فريق الموحدين ؟ لا شك أن الفريق الآمن المطمئن المستحق للثواب والجزاء هو فريق المومنين كما قال تعالى «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم» أي شرك كما جاء في الآية الأخرى «ان الشرك لظلم عظيم» «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» .

وقلت له : ان كل من ينسب لغير الله ، ما هو من صفات الله الخاصة به كالضر والنفع والعطاء والمنع ، وما أشبه ذلك ، فإنه يجعل لله شريكا ونظيرا ، سواء كان من الانس أو الجن أو الملائكة أو الحيوانات أو الأحجار أو الأشجار أو الكواكب أو غيرها من سائر المخلوقات ، ناطقة أو صامتة ، حية أو جامدة منظورة أو خفية ، وكذا من يتعلق بشيء من ذلك أو يخافه أو يرجوه ، فكيف يتشوش بالك من الموقف الذي قلت انك اضطررت إليه ، وما هو إلا منكر غيرته ، وباطل انكرته ، وسعي ضال فضحته ؟ .

أما دعاء من دعا عليك واستنجاده بالشيخ ، فانك تقرأ في القرآن الكريم ، قول الله تعالى : «انما يتقبَل الله

من المتقين» وهذا ليس منهم قطعا للمنكر الذي كان متلبسا به ساعة الدعاء ، بَله استنجاده بالشيخ الذي هو ضرب من الشرك ، فأنت حقيق بقول إبراهيم عليه السلام «وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا» أي ما ليس لكم عليه حجة ولا دليل ، فانه ليس في الكتاب ولا في السنة ما يدل على استعداء الأموات ، كيفما كانوا ، على أحد ، ومن فعل ذلك واعتقد أنهم يؤثرون فيمن استُعدوا عليه بوجه من الوجوه ، فهو مشرك بدون شك ولا ريب .

وانت أحق بالسلامة والأمن والطمأنينة مصداقا للآية الكريمة التي تسأل «فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون» ؟ ثم تجيب «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» .

فاقرأ يا أخي القرآن متدبرا ، واتله معتبرا ، ولا تكن ممن حملوه وضيعوه ، وحفظوه ولم يعوه :

كالعير في البيداء يقتلها الظما
والماء فوق ظهورها محمول

آيات قرآنية تورد
في غير موردها

من أثر الجهل بمعاني القرآن ، والغفلة عن مقاصده . اننا كثيرا ما ننحرف ببعض آياته الكريمة أثناء حديثنا ومواقع استشهادنا ، عن المورد الذي وردت فيه ، والوجه الذي ذكرت عليه . وقد تكون للآية دلالة على معنى عكسي لما استعملت فيه ، فيكون استعمالنا لها في هذا المعنَى مَن تحريف الكلم عن مواضعه ، وهو ما عابه الله عز وجل على قوم من أهل الكتاب ، لأنه أدّى بهم إلى الانسلاخ من هداية رسلهم وما جاءوا به عن الله سبحانه وتعالى .

وقد تكون الآية تنبيها على مقصد شريف مما لا ينبغي للمسلم الحنيف ان يغفل عنه خشية الوقوع في الاهمال لتعاليم القرآن التي بها الرشد والفلاح .

على أن الانصراف عن تحقيق مراد القرآن الكريم .

وفهم مضامين خطابه السامي ، هو الذي يوقع في هذا المحظور من سياق الآيات الشريفة على غير وجهها ، والاستدلال بها فيما لا تدل عليه . ويوشك أن يكون ذلك تعطيلا للرسالة الالهية ، واعراضا عن هداية القرآن ، وهو أمر ان لم يكن مخالفة مقصودة ، فان آثاره وانعكاساته تتجلّى في مظاهر حياة المسلمين وأحوالهم الاجتماعية والسياسية ، المخالفة لما جاء به القرآن من هدى ونور ، وما تهدف إليه تعاليمه من رفع معنويات اتباعه وجعلهم محل قدوة للناس .

ونحن انما نهتم بالنتائج ، ولذلك لا علينا ان تكون المخالفة عن عمد واصرار أو عن سوء فهم وتقدير ، فالقرآن نزل للعمل به وتدبر معانيه ، والسير في الطريق التي خطها لنا ، وضمن لنا الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة ، إذا سرنا فيها . وهذا الغرض لا يحصل كلا ولا بعضا الا بتدارسه وتفهم معانيه ، الا اننا لم نرفع بذلك رأسا ، فقرأنا القرآن تعبدا ، ولم نكلف أنفسنا باجتلاء معانيه وأسراره ، فضرب بيننا وبينه حجاب ، وعدمنا بركة هدايته وتكييف حياتنا بمقتضَى ارشاده ، ولا أدل على عدم اهتمامنا بفهم القرآن من ايرادنا لبعض آياته في غير موضعها ، حتّى أصبحت كالأمثال التي يتلقفها الخلف عن السلف ، مما يدل على أن هذا الانحراف قديم ، قدم انحرافنا عن العمل بالقرآن .

وقد تكلم العلماء على اقتباس الآيات والأحاديث الذي يقع في كلام الناس ، وذكروا منه الجائز والممتنع ، ومثلوا للممتنع ببعض ما يجيء في كلام الشعراء والأدباء في الأغراض الهزلية والمجونية ، وهذا في الواقع انتكاس خلقي ومسخ معنوي ، ان تُقتبس النصوص الدينية المقدسة ، وتضمن في الكلام الساقط والأغراض السافلة المرذولة ، ولسنا نعني هنا الا الاقتباس والاستشهاد بالقرآن فيما يظهر من اللفظ من غير اعتبار بالمعنَى ، ولسنا نقول انه حرام ، وانما نقصد انه دليل على الجهل بمورد الآية وغفلة عن مرادها الأسمَى .

وسبق لي ان كتبت كلمة في هذا الموضوع وأوردت فيها الآيات الآتية :

«ما فرطنا في الكتاب من شيء»

«ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة»

«يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم»

«وحصل ما في الصدور»

«فاقرأوا ما تيسر من القرآن» .

والآن أنبه على آيات أخرى من هذا القبيل ، فمنها

قوله تعالى «ولا تومنوا إلا لمن تبع دينكم» انها من قول اليهود بعضهم لبعض كما يتبين من أولها «وقالت طائفة من أهل الكتاب» وهم من اليهود على ما جاء في سبب نزولها «آمنوا بالذي انزل على الذين آمنوا» أي القرآن «وجه النهار» أي أوله «واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون» أي لإحداث البلبلة والفتنة في صفوف المسلمين ، فانهم حين يرون هؤلاء الكتابيين اسلموا ثم ارتدوا ، ربما اقتدَى بهم غيرهم من المومنين ورجعوا عن ايمانهم . ثم قالوا لبعضهم بعد ذلك «ولا تومنوا» لا تصدقوا وتخلصوا «الا لمن تبع دينكم» فهم يتواصون بان لا يثقوا ولا يطمئنوا إلا لليهود أمثالهم . وهي عنصرية مقيتة ما تزال في اليهود إلى اليوم ، يتعاملون بها مع من لم يكن على دينهم ، منذ ان كانت حفنة منهم تعيش في المدينة على عهد الرسول ﷺ حتَّى الآن ، وفي جميع البلاد التي يقطنونها سواء كانت بلاد اسلام أو مسيحية أو غيرها .

وبذلك نرَى أن الاحتجاج بهذه الآية لا يصح ، لأن مضمونها غير مقبول في شرع الاسلام الذي يأمر بالمعاملة الحسنَى للقريب والبعيد والملّي المسلم وغيره ، كما قال تعالى في آية أخرى «لا ينهَاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين» .

ومن هذه الآيات قوله تعالى «يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما» فهي من قول المنافقين بدليل ما قبلها : «وان منكم لمن ليبطئن» أي يؤخر الناس عن الجهاد كعبد الله بن أُبي رأس المنافقين «فان أصابتكم مصيبة» من قتل أو هزيمة «قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيدا» أي حاضرا «ولئن أصابكم فضل من الله» فتح أو غنيمة «ليقولن كأن لم يكن بينكم وبينه مودة : يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما» فهو يريد الربح بلا تعب ولا سعي والفوز من غير جهد ولا عمل . وليست هذه حال المومن .

نعم ان ظاهر اللفظ لا يمنع من ايرادها حيث تورد ، ولكن المومن ينبغي أن لا يقرن نفسه بذوي الهلك والخسار حتَّى في هذا الظاهر ، خصوصا وهو يحولها عن سياقها المذموم ، إلى الحالة المحمودة التي يستحسنها من غيره ويحب أن يكون عليها .

ومن هذه الآيات قوله تعالَى : «ان الله لا يغير ما بقوم حتَّى يغيروا ما بأنفسهم» ان الناس قد أكثروا من الاستشهاد بها على ان صلاح الحال وتدارك ما بالأمة من ذل وهوان ، انما يكون بتغيير ما هم عليه من المخالفة والعصيان ، وهذا انما هو مفهوم الآية ، واما منطوقها فهو وعيد وانتقام بدليل ما بعدها : «وإذا أراد الله بقوم

سوءا فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال» أي ان ما يحل بالأمة من نقمة وعذاب، وهو نتيجة مخالفتهم عن أمر الله، وتغييرهم لأحكامه، وبعدهم عن الطريق المستقيم، فهي مثل الاية الأخرى التي تقول «فلما آسفونا انتقمنا منهم» والناس يوردونها موردا آخر غير الذي تدل عليه ، وهو وان كان صحيحا لكن التذكير بموردها أوقع في النفوس وادعَى للاعتبار من السياق المتفائل الذي يحملونها عليه .

ومنها قوله تعالى : (من الجِنة والناس) في آخر سورة من المصحف فانها بيان لما قبلها من الوسواس الخناس ، يفيد أنه كما يكون من الجن يكون من الناس ، وفي كلام العامة ، وسواس من الجن ولا وسواس من بني آدم ، فكيف صار الناس يستشهدون بهذه الآية ، أو يوردونها على الأصح ، في الحالة التي تكون مما يتمناه الشخص ويجده مُيَسراً لا مشقة في تحصيله ، فيقولون : وجده من الجنة والناس ؟ اخشَى أن يكون فهمهم قد زل زلة كبيرة حتَّى ظن الجِنة ، جَنة بفتح الجيم ، وتوهم مع ذلك أنه حصل على السعادة الأبدية والنعيم المقيم . اما ان كانوا يظنون أنه أعيذ بالفعل من الجن والناس حين حصل على مطلوبه بهذه السهولة ، فانهم يكونون قد أغرقوا في الخيال ، وطمعوا فيما لا مطمع فيه ، وخاصة حين يقولها

المرء لنفسه ، وعلى كل حال فهذا معنى بعيد عن دلالة الآية ، ولا يتبين بوجه استخلاصه منها .

ويقولون : فلان واقف على انما السبيل ، يعنون انه فقير معدم ، أخذاً من قوله تعالى «ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ، ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً الا يجدوا ما ينفقون» فان الوقف في آخر هذه الآية ، يقع على قوله تعالى بعدها يليها : «انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بان يكونوا مع الخوالف» ومنها نعلم أن الآية السابقة لم ترد في مجرد الفقراء ، وانما أتت في الفقراء الذين يريدون الجهاد ولا يجدون قدرة عليه ، من قلة ذات أيديهم ، فهم عاجزون عن الاستعداد له بالسلاح والمركوب وما إلى ذلك . وقد عذرهم الله تعالى وأعفاهم من الخروج معه ﷺ وادان بعكس ذلك الأغنياء الذين يستأذنون النبي في التخلف عن الغزو وهم قادرون عليه ، فبان بهذا ان الواقف على انما السبيل المكنى به عن مجرد الفقير ، ليس هو المعني ، والغفلة عن المراد غفلة عن وجه عظيم من وجوه العمل في الحقل الاسلامي ونصرة الحق ، وهذا من أدنى ما توقع فيه هذه الاستعمالات للآيات القرآنية ، البعيدة عن موردها .

التبشير ودلالته

من مهانة المسلمين حكومات وشعوبا ، على الله وعلى الناس ، أنهم صاروا يعدون في الأقوام الذين لا خلاق لهم من دين ولا دنيا ، فهم يصنفون في الشعوب المتخلفة اقتصاديا ، وان كانوا يجلسون على كنوز من الثروات الطبيعية التي اغتنت بلاد ودول بما تختلسه منها خفية وعلانية .

هذا في الدنيا ، وفي الدين ، وهو ما يهمنا هنا ، تعتبر بلادهم من مناطق النفوذ الروحي لفئات المبشرين المسيحيين الذين يغزونهم كما يغزون المجتمعات المتوحشة والشعوب الوثنية في افريقيا وآسيا . فهم في نظر هؤلاء المبشرين يقفون على قدم المساواة مع الذين لا دين لهم ولا عقيدة ، ولذلك نراهم يلقنونهم العقيدة المسيحية ، ويحثونهم على مكارم الأخلاق من الصدق والأمانة والعفة ويعلمونهم قواعد السلوك والمعاملة مع الناس مما يدل على

النظرة الوضيعة التي ينظرون بها إليهم ، والصفة المزرية التي يقدمونهم بها إلى مختلف الهيآت والمنظمات التي تمول حركة التبشير في أروبا وأميريكا . وبصرف النظر عن حقيقة الأمر فيما يدعيه هؤلاء المبشرون على المسلمين وبلاد الاسلام ، فان الواقع المر ، هو أن المسلمين الذين يعتنقون الدين الذي لا يقبل الله سواه كما جاء في الآية الكريمة «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه» والذين هم بحكم حملهم لرسالة هذا الدين ، كان الواجب أن يكونوا هم السابقين الأولين في التبشير به وابلاغ دعوته إلى سكان المعمور ، أصبحوا لتهاونهم بتعاليم دينهم وخمولهم وانكماشهم ، مباءة غزو الايمان المسيحي وبؤرة بذر الأفكار التضليلية من طرف فئات المبشرين . الذين ينشرون عقيدة التثليث بين الموحدين ، وخرافة الصلب والفداء بين المومنين بانه لا تزر وازرة وزر أخرَى وان ليس للانسان الا ما سعَى ، يرَى ذلك جمهورهم وقادتهم ، وحكامهم ، فيقرونه ولا يمنعونه ، وغاية ما يقوم به بعض الغير من علمائهم هو الاستنكار والاستصراخ الذي يذهب مع الريح .

ولعل المغرب ، وهو بلاد اسلامية خالصة ، يكون مثالا لما تقوم به ثلة المبشرين ، في غفلة أو غيبة من أبناء البلاد الاسلامية ورجال السلطة فيها .. فقد جاء في تقرير

لوزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية ان المؤسسات التبشرية التي تعمل بالمغرب ، لها من الوسائل المادية والمغريات ما يجعل عملها خطيرا لو ترك لها الحبل على الغارب ، وان أعمال هذه الهيآت قد ظهرت بالفعل واضحة منذ مدة ، ومرتكزة على الأخص في بعض المدن والقرَى الكبرَى .

وقد تبين من خلال البحث الذي أجرته الوزارة في هذا الصدد ، ان هذه الجماعات تقوم بنشاط ملحوظ لتضليل الناس وتشكيكهم في دينهم وحملهم على الدخول في معتقداتها . فقد توصلت الوزارة بعدد ضخم من العرائض ومن رسائل رجال السلطة المحلية ونظار الأحباس ورجال التعليم ، مصحوبة بالمناشير والكتيبات التي توزعها الجمعيات التبشيرية وتبعث بها إلى الطلبة وتلاميذ المدارس والفقهاء والأئمة والخطباء ، تدعوهم فيها إلى نبذ الاسلام واعتناق المسيحية ، حسب نظريات هذه الجمعيات من كاثوليكية وبروتستانية وغيرها .

ثم أعطَى التقرير بعض الأرقام والاحصائيات التي توصلت إليها الوزارة عن المؤسسات التبشيرية في المغرب ، وهي كما يلي : (3) مستشفيات (20) عيادة أو مستوصفا طبيا (12) ملجأ ومأوَى خيريا (16) ناديا ثقافيا (11) ناديا للتكوين المهني النسوي (16) مدرسة ابتدائية (3)

مدارس ثانوية (3) مكتبات عمومية (11) جمعية أخرى . المجموع (95) مؤسسة .

هذا ما تتوفر عليه الثلة التبشيرية المسيحية العاملة في المغرب من المؤسسات الاحسانية والثقافية والمهنية ، حسب احصاء رسمي ، وهو أمر يدعو إلى الدهشة والاستغراب .. فانه إذا كان المغرب الذي رفع راية الاسلام في الماضي بين الأفارقة السود حتَّى دخلت أقطار بكاملها في دين الله ، وقبل ذلك حمل الهداية الاسلامية إلى القطر الأندلسي نفسه ، ثم بقي حارسا أمينا عليها طوال ثمانية قرون ، إذا كان المغرب الداعية للاسلام يتعرض لهذا الغزو الساحق من المبشرين المسيحيين ، فما بالك بغيره من البلاد التي لم يكن لها قدم الصدق هذه في الدعوة ، فما بالك بالبلاد التي ليست خالصة للاسلام . وليس فيها سلطة تحميه ؟؟..

ان هجوم المبشرين على الأقطار الاسلامية بهذا الشكل الفظيع ، له دلالة واحدة هي أن المسلمين تخلوا عن مهمتهم في ابلاغ رسالة الاسلام وحمايتها ، وتناسوا تعاليم دينهم الحنيف ، وفقدوا الغيرة عليه وبذلك صاروا كما مهملا وسائمة لا راعي لها ، فتجرأ عليهم الاغراب والذئاب ، لا طمعا في مالهم واستغلال طاقاتهم الطبيعية والبشرية فحسب ، كما كان شأن الاستعمار ، بل رغبة في

أعظم من ذلك وهو تحويلهم عن عقيدتهم والرجوع بهم إلى عهد الجاهلية ، مراغمة لدعوة الاسلام ورسالته الخالدة فما لم يدركه الاستعمار بالقوة ، يريد هؤلاء المغامرون أن يدركوه بالحيلة والمخاتلة والخداع .

انه ما غزي قوم في عقر دارهم الا ذلوا ، ولا ذل أعظم من أن يأتي شرذمة من المرتزقة ، يزعمون أنهم أصحاب عقيدة ودين ، إلى بلاد الاسلام لتحويل ابنائها عن دينهم الصحيح ، فيجدون السبيل ممهدا ، والوسائل مهيأة ، والمقام أمينا ، ولا يصطدمون بعقبة ، ولا يلقون مقاومة لا من الشعب ولا من الحكومة .. فهذا معناه ان المسلمين أصبحوا طعمة سائغة لكل من أراد أن يلتهمهم ، لأنه إذا هان الدين على أهله حتَّى تسامحوا فيه ، لم تبق لهم كرامة ، ولم يقم لهم أحد من الناس وزنا . ان دوس معنوية الشعب والاستهتار بحياته الروحية لدليل على ذله ومهانته ، وان اعتقد أنه عزيز كريم ، فليست الغاية هي فك رقبته من قبضة المستعمر ، أي ما نعبر عنه بالاستقلال ، ولكن الغاية هي التحرر من العبودية والاستلاب ، فالشعب الذي ما يزال قابلا للغزو الفكري ، لم يستقل بعد .

هذا في الشعوب عموما، وفي الشعوب الاسلامية بالخصوص، يعني وجود المبشرين المسيحيين، مسخا

ونكسة وارتدادا .. ولذلك فانه لا يكفي أن تغلق مراكز التبشير ، لأن اغلاقها لا يزيل القابلية المذكورة ، بدليل انه بعد الاجراءات التي قامت بها الحكومة المغربية ازاء المبشرين وتحركاتهم وبعض مراكزهم ، نتيجة لتقرير وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية المشار إليه ، عاد هؤلاء فاستأنفوا نشاطهم من جديد ، لأن التربة خصبة ، ولأن قابلية الشعب المغربي المسلم ، ككل شعب آخر توجد فيه مراكز للتبشير ، ما تزال موجودة .

والعمل الذي يجب القيام به للقضاء على هذه الجرثومة الخبيثة ، جرثومة القابلية للشر ، هو توعية الشعب بتعاليم دينه الحنيف ورسالته الخالدة ، مع المقارنة بينه وبين الأديان والملل والنحل الزائفة ، وبيان الاصلاح العظيم الذي جاء به إلى البشرية ، فأخرجها من الظلمات إلى النور ، وأنقذها من عبادة المخلوقات إلى عبادة الخالق عز وجل .

ويقتضي ذلك وضع اليد على تلك المراكز التي عددنا منها في المغرب (95) مركزا ، وتخصيصها للدعوة الاسلامية ، والتبشير بمحاسن الدين الحنيف ، وتنصيب العلماء والدعاة الأكفاء فيها ، ليقوموا بما كانت تقوم به ، ولكن لصالح دين الدولة ولبناء صرح الأمة الاسلامية ، ولانقاذ الشباب والجماهير المسلمة من تيارات

الأفكار الالحادية التي تجرفها وتجعلها فريسة سهلة لهؤلاء المضللين الذين يدعون أنفسهم بالمبشرين ، وكل من كان على شاكلتهم .

إن عقيدة الأمة ودينها الذي تعتنقه عن ايمان ويقين ، هما ملاك أمرها وعصام وجودها ، فالمحافظة عليهما أول واجبات الدولة ، ولن تكون هذه المحافظة بالنص على دين الدولة في الدستور ، وتطويق الحكومة بحمايته ، ولن تكون كذلك بدعوة العلماء إلى القيام بواجبهم في الأندية والمقاهي والأسواق بله المساجد ، وحتّى لو عقدوا «الحلاقي» في الساحات العمومية اسوة بالمشعوذين والمهرجين كما يطلب منهم بعض المُتَفيقهين ، ولن تكون بهذا القليل التافه من المعلومات التي يتلقاها التلاميذ في الفصول الأولى من دراستهم الابتدائية عن شعائر الدين وواجباته الضرورية التي سرعان ما تمحى من أذهانهم بعد ذلك ان كانت قد ارتسمت فيها من قبل ، وإنما تكون بمثل هذه المؤسسات التي تخصص للدعوة والتبشير ، وتجهز بجميع ما يجعلها تؤدي مهمتها في يسر واسماح ، فالعصر عصر التنظيم والتقنية ، والاعمال المتهورة تنفر الناس منها بطبيعتها ..

ونحن لا نقول بأن الدولة وحدها يجب أن تقوم بهذا العمل ، فان الحركات التبشرية المسيحية لا تقوم بها

الدول في الغالب وان كانت تمدها وتؤيدها ، إن ما نريده من الدول الاسلامية هو ان تنزل فقط إلى الميدان ، ولا تبقَى متحفظة بالنسبة إلى العمل الديني ومكتفية بما تخطه في دساتيرها وقوانينها . وقبل كل شيء لابد أن تمنع القيام بأي عمل تبشيري يضاد دين الاسلام ، وأن تضع اليد على مؤسسات المبشرين وتتولى تسييرها لتكون قدوة لشعوبها وتضيف إليها مؤسسات مماثلة في الجهات التي تدعو الحاجة إليها ، نعم على أغنياء المسلمين أن يبرهنوا على غيرتهم الدينية ويكونوا مثل أغنياء النصارَى الذين يمدون الحركات التبشيرية بالأموال الطائلة ، والجرايات المستديمة ، لمواصلة عملها ومزاولة نشاطها باستمرار ، ولو لم يكن هناك ما يبعث على العطاء في هذا السبيل، الا ما قررته آية الزكاة، من تخصيص سهم للمؤلفة قلوبهم ، لكان ذلك كافيا لحفز همة أغنيائنا إلى التنافس في انشاء مؤسسات للدعوة إلى الاسلام وحمايته من تهجمات خصومه عليه ، وقيام الغير من المسلمين بجمع حصة الزكاة هذه ، وارصادها لهذا العمل الذي يرضي الله ورسوله والمومنين ، وبالله التوفيق .

القرآن وحرية الفكر

يخطئ كثير من الكتاب الأوربيين والامريكان حينما ينسبون ما يرون من تخلف المسلمين اليوم في الحضارة والعلوم ، إلى الدين الاسلامي وبالتالي إلى القرآن لأنه كتاب المسلمين المقدس ، به يهتدون ، وبأوامره يعملون ، ومنه استمداد جميع علوم الدين الاسلامي من اعتقادات وعبادات ومعاملات .

ذلك أنهم يقيسون حال المسلمين على حالهم حينما كان لرجال الكهنوت الكلمة الفصل في شؤونهم الدينية والدنيوية ، وكانت كل حركة تقدمية ، تمنى منهم بالمقاومة . فكم اضطهدوا باسم الدين من رجال العلم واحرار الفكر ! وكم نظرية علمية كانت من قبيل المسلمات عند المسلمين ، لما قال بها أحد علماء الغرب ، احتقروه وأهانوه ورموه بالكفر والزندقة ، وربما قتل وأحرق .

وناهيك بان كوبرنيكوس لم يستطع الجهر طول حياته بأن الأرض تدور ولما أتى غاليليو من بعده وصرح بذلك تألب عليه العالم المسيحي كله وأدانته الكنيسة وحرمت كتبه ، وما أفلت من العذاب المهين الا باعلان توبته على رؤوس الملأ من هذا الكفر الصراح ! !

هذا بينما قبل ذلك بثلاثة قرون ، كان الفخر الرازي مثلا في العالم الاسلامي ، يقرر هذه الحقيقة العلمية وما تسبب عنها من الظواهر الطبيعية ويطبق ذلك على الآيات القرآنية في تفسيره العظيم !

وبهذا يعلم أن قياس موقف الدين الاسلامي من العلم وحرية الفكر على موقف الدين المسيحي منهما أو رجاله على الأصح هو قياس مع الفارق ، لأنه ليس في الاسلام رجال كهنوت يحرمون ويحللون ، ولم يسجل في تاريخ الاسلام حركة اضطهاد لأحد من أجل أفكاره أو مذهبه العلمي . وقد كان مما شدد فيه الاسلام ونبيه عليه السلام التقول على الله في دينه بالتحليل والتحريم ففي القرآن الكريم «ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب» وفي الحديث الشريف (أعظم المسلمين في المسلمين جرما رجل سأل عن شيء لم يحرم على الناس فحرم من أجل مسألته) .

واتفق علماؤنا على أن الأصل في الأشياء الاباحة حتّى يقوم دليل على خلافها .

على أنه في أحوال نادرة وقع ايقاف بعض الأشخاص من أجل اعتبارات سياسية ألبست لباس الدين ، ولكن الجميع يعلم أن الدين منها براء .

وقد أشاد القرآن بحرية الفكر وحض على النظر العقلي في الأشياء وظواهر الطبيعة فقال «فاعتبروا يا أولي الأبصار» وقال في حق قوم عطلوا آلات الادراك «لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولائك هم الغافلون» .

وقال آمراً بالنظر والتفكير في السماوات والأرض : «قل انظروا ماذا في السموات والأرض» وقال «وكم من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» وقال في مدح العلماء المفكرين «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» أما العلماء مطلقا فان الثناء عليهم في القرآن كثير مثل آية «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» وآية «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ إنما يتذكر أولو الألباب» إلى آخره .

وكما أشاد القرآن بحرية الفكر ، قطع الطريق على الاضطهاد الديني ورفع الحرج عن المكلفين فقال في احدَى الآيات : «لا اكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي» وقال في أخرَى «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» .

ولم يشد القرآن بحرية الفكر فقط بل جعلها مناط التكليف وصحة الايمان ، وجعل الانسان مسؤولا عما يأتي وما يذر إذا لم يكن صادرا فيه عن دليل يقيني وحجة برهانية كما قال «ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا» وقال في حق قوم لم يكن معهم من حجة الا اتباع آبائهم : «بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون» إلى أن قال «قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟» .

ومن ثم قال علماء الاسلام بأن ايمان المقلد الذي لم يحصل عن دليل عقلي غير صحيح !.. واعظم دليل على مساندة القرآن لحرية الفكر ان ازدهار الحضارة الاسلامية ، وتقدم المسلمين في العلوم والفنون انما كانا في عصر استمساكهم بعروة الدين ، وتطبيقهم لأحكام القرآن وما خبت جذوة الحضارة عندهم وضعفت مداركهم في العلم والمعرفة الا حين نبذوا تعاليم القرآن وتفصوا من دعوته .

وهذا فخر الدين الرازي في تفسيره الضخم قد طبق جميع نظريات العلم والفلسفة والكلام المعروفة في عصره على آيات القرآن ، فتلقّى المسلمون تفسيره بالقبول ، ونظروا إليه نظرة تقدير واعجاب جعلته عندهم بمثابة الحجة والدليل على اشتمال كتاب الله على جميع المعارف البشرية .

وفي عصرنا هذا جاء الشيخ طنطاوي جوهري فرفع عقيرته بأن القرآن منبع العلوم وانه دعوة صارخة إلى النظر في جميع فروع المعرفة من طبيعة وفلك وكيمياء وهندسة وطب وفلسفة وسياسة وأخلاق ؛ ثم وضع تفسيره العظيم على هذا الاساس ، فبين احتواء الكتاب العزيز على أصول هذه المعارف ودلل بالحجة والبرهان على أنه النبراس الذي اهتدت به الأمة الاسلامية في عهد مجدها ورقيها وانه لا تقوم لها قائمة فيما يستقبل من الزمان الا إذا عادت إلى حظيرته واستظلت بظله[1] .

---

(1) كتب هذا المقال ردا على دعوَى الكاتب الايرلندي أوسكار وايلد فيما نقله عن الرحالة ستيوتفيلد من أن القرآن قضى على حرية الفكر في المغرب .

الدين والعقل

لا يعارض الدين العقل أبدا ، الا إذا كان دينا غير صحيح ، فباعتبار العقل مناط التكليف ، كيف يتعارض الدين مع العقل ، وهو الذي جاء بالتكاليف الشرعية ، واحتج لها بحجج عقلية ؟ اننا إذا قلنا بهذا الرأي ، نكون قد نسبنا الخالق إلى العبث تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

ومن ثم فاننا لا نقبل أن تكون المسيحية هي التي أخرت أتباعها مدَى قرون ، لما كانوا متمسكين بها ، وانهم انما تقدموا في العلوم والفنون ، وأنشأوا هذه الحضارة العجيبة المعجبة ، بعد تخليهم عن الدين المسيحي وتنكرهم للكنيسة ورجالها المتعصبين ، كما يردد ذلك غير واحد من الكتاب والباحثين ..

إن المسيحية دين سماوي صحيح ، جاء لتقويم الانحراف الذي طرأ على اليهودية ، التي هي كذلك دين سماوي صحيح ، ولكنها مع الأسف وقعت فيما وقعت فيه

اليهودية من الزيغ عن طريق الحق ، حتَّى صار أتباعها يعتقدون الباطل والمحال .. وهذه هي المسيحية التي قعدت بهم عن اللحاق بركب الحضارة والتقدم ، فلما انخلعوا من ربقتها وحاصروها في أروقة الكنائس ، تفتحت عقولهم على أسرار العلم وأنوار المعرفة .

والمسيحيون على العموم ، وبعض مقلديهم من المسلمين ، يعتقدون أن الدين مطلقا ، عدو للعلم والرقي ، لأنه يدعو إلى تعطيل الفكر وعدم استعمال العقل في قضايا التطور والحياة ، ولذلك ينسبون تأخر المسلمين اليوم وعدم مجاراتهم للشعوب والأمم الناهضة ، إلى تمسكهم بالدين الاسلامي ، وايمانهم بالقضاء والقدر الذي يجعلهم يعتقدون ان ما هم عليه من تخلف وانحطاط هو مراد الله عز وجل فيهم ولا سبيل لتغييره .

وأول ما نرد به عليهم هو أن المسلمين في عهود عزهم ومجدهم كانوا متمسكين بالدين أكثر منهم الآن ، وان الحضارة الزاهرة التي أنشأوها في عصورهم الذهبية أخص صفة توصف بها هي الاسلامية ، لأن الذين ساهموا في انشائها ينتمون إلى جنسيات مختلفة من عربية وفارسية وهندية ومصرية وافريقية وأندلسية ، وغيرها ، ولا جامعة تجمعهم إلا الاسلام ، وإلا الايمان بالقضاء والقدر الذي كان يدفعهم إلى المغامرات في سبيل نجاح مقاصدهم ، لا

كما يظنه البعض من أنه يصدهم عن العمل والسعي . لأن لب هذه العقيدة وجوهرها ، هو ان ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، كما فسرت على لسان الرسول ﷺ ، فكيف يقال اذن ان تأخر المسلمين وتخلفهم عن ركب الحضارة ، ناشئ من تمسكهم بدينهم واعتقادهم بالقضاء والقدر ؟..

نعم ان المسلمين اليوم فرطوا في دينهم ، واجتاحتهم الخلافات والمذاهب الباطلة ، ولم يبق بيدهم من الاسلام إلا القشور والمظاهر الفارغة ، فلو قال قائل ان تأخرهم ، متأت من تخليهم عن الدين ، لا من تمسكهم به ، لكان صادقا كل الصدق ، ولأكد بكلامه هذا ما قدمناه من أن الدين الحق لا يكون سببا في التخلف ولا يعوق ابدا عن التقدم ، الا إذا قلنا بتعارضه مع العقل ، وهو أمر باطل ، لأنه يستلزم وصف الارادة الالهية بالعبثية ، وذلك محال قطعي .

ثم ننظر في نصوص الدين الاسلامي الذي أتَى ليصلح هو بدوره أخطاء المسيحية ، فنجد القرآن الكريم يمجد العقل ويرفع من شأنه في غير ما آية من آياته البينة ، كقوله تعالى «وتلك الامثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون» وقوله «ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما

ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون» وقوله في ادانة الذين أهملوا عقولهم «ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون» وقوله أيضا في ذمهم «أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، ان هم الا كالأنعام بل هم أضل سبيلا» وأكثر من ذلك أنه جعل الكفر لا الايمان هو الذي ينافي العقل ، وذلك حين قال عز من قائل : «ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء ، صم بكم فهم لا يعقلون» .

وكذلك نجد في السنة أحاديث تنبئ بفضل العقل واعتباره أشد الاعتبار ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما : لما خلق الله العقل قال له أدبر فأدبر ، ثم قال له أقبل فأقبل ، فقال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أحسن منك ، فبك أعطي وبك آخذ وبك أعاقب أخرجه ابن الجوزي في كتاب ذمّ الهوَى ، وعنه أيضا : أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ، ومثله لا يقال عمن لا يصح منه الأمر من قِبَلِ الرأي فالآمر لهم هو النبي ﷺ. وقد رواه البخاري في صحيحه عن علي كرم الله وجهه بلفظ حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله ؟.. ويروَى بلفظ خاطبوا الناس على قدر عقولهم

الخ وهو حديث عظيم في هذا الباب ، لأن دلالته واضحة في أن الدين مبني على العقل ، وأن أوامره ونواهيه لا تتنافَى مع مقتضيات الحكمة التي تدرك بالعقل . ولذلك يحرص الشارع على أن لا ينسب إلى الدين ما لا يقبله العقل ، فيكون سببا في تشكيك الناس بأمر دينهم وعدم تصديقهم لقضاياه .. ومثل هذا الحديث قول ابن مسعود رضي الله عنه ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم ، الا كان لبعضهم فتنة ، ذكره مسلم في مقدمة صحيحه .

ومن المعلوم أن القضايا الكبرَى في الدين ، وهي قضية وجود الباري عز وجل ووحدانيته وسائر صفاته العلية وارساله الرسل وتصديقهم فيما يخبرون به عنه ، كلها ثابتة بالدليل العقلي الذي لا يقبل النقض ، وأبرَّ الاسلام على ما سبقه من الأديان لزيادة اليقين بأنه من عند الله تعالى ، ان الذي جاء به هو الرسول الامّي محمد ابن عبد الله ، في أمة أمية لا تكتب ولا تقرأ ، هي العرب ، وكانت معجزته الخالدة هي القرآن أي الكتاب الذي تضمن العقائد والأحكام واخبار الرسل والأنبياء السابقين على وجهها الصحيح الذي لا يليق بالرسالة الالهية غيره ، كما تضمن الحديث عن المغيبات والحياة الأخرى بما لم يفصح عنه كتاب آخر ، ووقف المفكرون

والفلاسفة حيارَى إزاءه ، وهذا فضلا عن دعوته للاخوة البشرية ونفيه للتفاضل بين الأجناس الا بالعلم والعمل . وهدايته إلى السبيل الأقوم والسعادة الأبدية في المعاش والمعاد .. مما عرض على عقول جميع المفكرين والدعاة المصلحين من المومنين به وغيرهم ، في مدَى أربعة عشر قرنا ، فكلها صدقته وصادقت عليه ولم تعترض على شيء مما جاء به ، أو تقل إنه ليس مما يوافق العقل الصحيح .

وإذا كانت هناك بعض الجزئيات مما يتوقف فيها بعض المفكرين أو يأخذونها على الدين فليس معنَى ذلك أن الدين عموما في كلياته وجزئياته غير مطابق للعقل ، فانه بعد ثبوت الأصول ، لا تصح المماحكة في بعض الفروع ، لا سيما وقد يكون مغزاها مما خفي على هذا المتوقف فيها ، وكم في المذاهب الفكرية والفلسفات العقلية ما لا يتضح معناه ولا يتبين مغزاه ، على أن الفيلسوف ابن رشد رحمه الله قد ذكر في كتابه فصل المقال ان النصّ الذي لا يتوافق مع العقل يجب تأويله باتفاق العلماء ، ونحن وان كنا لا نسلم هذا الاتفاق ، يكفينا أن يقول هذا القول عالم جليل مثل ابن رشد ، فقد كان على رسوخ قدمه في الفلسفة والعلوم العقلية فقيها كبيرا وكان قاضيا للمسلمين في مدينة قرطبة ، عاصمة العلم والفكر في المغرب الاسلامي الكبير .

الاسلام والتطور

يكثر الكلام على أن الاسلام دين متطور ، يساير التقدم ، ويصلح لكل زمان ومكان . وينكر هذا الرأي كثير من علماء الدين ، ويحملون على القائلين به حملة شعواء .

والحقيقة أن اطلاق الكلام في هذا الموضوع ايجابا ونفيا ، ليس بصحيح ، وان الذين يقولون بتطور الاسلام من غير تحفظ ولا تقييد ، قد أوقعوا غيرهم من الشباب المندفع نحو بريق المدنية العصرية ، والساسة الذين يصرفون شؤون الأمة ، في محظور عظيم ، إذ كلما راق لأحدهم ان يعتنق فكرة أو يتبع نظاما ما ، الا وادعَى انه يطبق الاسلام في سلوكه وعمله ، بحجة ان الاسلام دين متطور ، قابل لكل الأفكار ومنسجم مع كل النظم .

واما الذين ينكرون التطور بكل وجه ، فانهم سدوا

بابا واسعا من أبواب التشريع في الاسلام ، وجمدوا القواعد والأصول المحكمة في كثير من الأحوال والنوازل التي يتعرض لها المجتمع ، بمختلف الأزمنة والأمكنة ، ولم تكن مما حدث قبل.

فكل من اطلاق القول بتطور الاسلام وعدمه ، يؤدي إلى تقليص ظله ، وانحسار مده ، هذا يضعه على الرف ، ويجعله غير صالح لحل المشاكل ، واملاء المواقف ، فيما جد من المعاملات والأوضاع الاقتصادية وغيرها ، فيحمل الناس على الانصراف عنه والتماس المخرج في غيره ، وذاك ينقضه عروة عروة ، حتَّى لا يبقَى بيده منه إلا الاسم ، كما هو مشاهد في واقع أكثر من بلد اسلامي يأخذ أهله بأحد الرأيين.

والصواب أن المسألة فيها تفصيل ، فلنلق بعض الأسئلة التي لا نظن أن الطرفين يختلفان في الجواب عليها ، ومنها نصل إلى النتيجة المطلوبة.

هل العقيدة الاسلامية قابلة للتطور؟ أعني كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وما تحتها من دلالات ومفاهيم ، هل تخضع للتطوير ، فتصبح كالعقيدة المسيحية تشرك مع الله غيره ، أو تقول باسناد فعل من أفعاله تعالى كالشفاء من المرض وايتاء العقيم الولد وغفران الذنوب ونحو ذلك إلى أحد من خلقه ولو

كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا ؟ وهل يمكن مراجعتها على نحو ما يعتقده الفلاسفة والمفكرون الأحرار في الله عز وجل وبعثة الرسل والملائكة واليوم الآخر وما إلى ذلك ؟.

الجواب بالنفي قطعا سواء ممن يقول بالتطور وممن ينكره .

هل يدخل التطور أحكام العبادة في الاسلام ؛ كالصلوات الخمس ، تصير اثنتين مثلا ، والصيام في شهر رمضان يلغَى كلا أو بعضا لعلة من العلل ، غير ما بينه الشرع ؟

الجواب : لا بكل تأكيد من الطرفين .

هل تتطور أحكام الشريعة بحل ما حرم الله نصا كالزنَى والخمر والربَى ولحم الخنزير والقمار وما أشبه ذلك ؟

الجواب كالسابق ، الا في مسألة الربى التي أثيرت فيها بعض الشبه من بعض المفكرين ، ولكنها لم تصادف قبولا لدَى جمهور الأمة . وفضل بعضهم التعامل بها عند الاضطرار ، مع اعتقاد حرمتها ، على القول بحلها .

هل يتطور الاسلام بمنع ما أحل الله كالطلاق وتعدد الزوجات وحرية الملكية الفردية ، وما جرَى هذا المجرَى ، مما طلعت علينا به القوانين والمذاهب المعاصرة ؟

هنا زلت أقدام بعض المفكرين الاسلاميين ، وبعض الحكام المتشبعين بمنهاج الحياة الغربية ، فقال الأولون بمنع الطلاق أو تقييده بما يشبه المنع ، وان تعدد الزوجات معلق بشروط لا يمكن تحقيقها أبدا ، فهو ممنوع كذلك ، وتسرع الآخرون فأصدروا قوانين بهذا المنع .

ومن المؤسف أن يعتقد هؤلاء أن انسياقهم في حبل التقليد الغربي ، تطور ، وهو تطور عكسي أي رجوع إلى الوراء . مما كان عليه الغربيون في مطلع القرن الحالي وما قبله .. اما الآن فان الطلاق قد أصبح عندهم بحيث تعد وقائعه اليومية بالثواني . وقامت من أجل تشريعه معارك ، كان آخرها في ايطاليا أثناء السنة المنصرمة حتَّى حصل الاعتراف به واما التعدد فان القوم سائرون نحوه ، أعني نحو تشريعه بخطًى واسعة ، والا فهو قائم بينهم واقعيا بشكل فظيع ، اين منه التعدد المشروع الذي هو خير كله سواء بالنسبة للمرأة أو للمجتمع [1] .

ولا أتناول مسألة حرية الملكية الفردية ، التي انما طرحت على صعيد الفكر الاسلامي ، تأثرا بصراع المذاهب والأفكار في الغرب ، حيث تقوم الرأسمالية بجبروتها وطغيانها ، وحيث كان الاقطاع يستنزف دماء الشعب حتَّى أدَّى إلى الثورات الحمراء المعروفة ، وقد

---

(1) انظر بحث المرأة في الشريعة الاسلامية ضمن كتابنا مفاهيم اسلامية

خصصتها ببحث مستقل[1] وتناولتها في غير ما مناسبة من وجهة النظر الاسلامية ، ولكني أذكر مسألة هي أمس بقضية التطور التي نخوض فيها لأنها صارت مما تلوكه الألسن ، وتغرى به النساء لإثارتهن على أحكام الشريعة ، وتلك هي المساواة في قسمة المواريث بين الذكر والأنثَى . على أن ما أقصده هنا ليست مسألة المساواة بالذات ، بل مجرد المس بأحكام المواريث .

فقد حدث سنة 1388 أن صدر في المغرب قانون بفرض ضريبة على التركات تصل في بعض الأحوال إلى 40في ٪ ، فاحتجت رابطة العلماء على هذا القانون ، ونشرت صحيفتها الميثاق عدة انتقادات له ، مما جعل وزير المالية يطلب مقابلة العلماء بأمر ملكي ، فقابلناه ، ولما سأل عن وجه مخالفة هذه الضريبة للشرع الاسلامي ، قلنا له : انها (أولا) خرق لما أجمع عليه المسلمون منذ الصدر الأول من عدم المساس بالتركة التي تولى الله قسمها ولم يكلها إلى أحد غيره . بحيث اكتست صفة التعبّديات ، حتّى إن العلماء اختلفوا في بيت المال هل يرث أم لا عند فقدان الوارث ، فأحرَى مع وجوده . ثم هي (ثانيا) مد لليد في أموال اليتامَى الذين

---

(1) انظر بحثنا عن الملكية الفردية في الاسلام المنشور بكتاب المؤتمر الأول لمجمع البحوث الاسلامية ص 185 ــ 194

هم في حكم الشرع قاصرون لا يجوز لأحد أخذ شيء من مالهم ، ولو الوصي الذي هو بمنزلة الأب ، ما عدا النفقة الضرورية ، إلى أن يرشدوا ، مع العلم بأن أكثر الوارثين من اليتامَى ، فكيف تؤخذ أموالهم التي أمر الله بالمحافظة عليها وتوعد على التصرف فيها بغير حق ؟ فقال السيد الوزير : ان هذه الضريبة معمول بها في تونس ومصر. فقلنا له ان تونس ومصر ليستا بحجة على الشرع ، بل الشرع هو الحجة عليهما وعلى غيرهما . واقتنع الوزير ، وصدر مرسوم ملكي بالغاء هذه الضريبة .

أردت أن أوكد بحكاية هذه الواقعة أن أحكام الشرع المنصوصة والمجمع عليها ، هي مما لا يدخله التطور ، ويجب أن تبقَى بمنجاة من أيدي العابثين ، فان هذه الضريبة لم تغير قسمة المواريث ، ولكنها تسورت على قداستها ، وأطلقت اليد في أموال القاصرين ، ولذلك لم يسعنا الا أن نستنكرها سدا للذريعة وحماية لأحكام الشريعة .

اما ما ليس منصوصا وما جد من أمر ، فكما كان قبل محل نظر واجتهاد من رجال الفقه والدين ، تختلف فيه آراؤهم وتتفق ، وتدور حوله مناقشاتهم وتنتهي إلى ما يرونه الحق ، فهذا ما لا سبيل إلى انكاره ، وقيامه في كل عصر ومصر ، فيدلي فيه أهل العلم برأيهم ، ويؤخذ

بقولهم فيه ، والا تعذرت الأحكام ، وضاعت مصالح الناس ، وهو ما عناه الامام العادل عمر بن عبد العزيز في كلمته المأثورة «تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور» وهو مناط قاعدة تحكيم العمل والعرف الذي جرَى عليه الناس ، في مذهب الامام مالك ، حتّى لقد صار فقه العمل في هذا المذهب بابا خاصا يتدارسه الفقهاء ويحكم به القضاة منذ عهد قرطبة والقيروان وهلم جرا . بل هو موضوع الاجتهاد الذي قامت على أساسه المذاهب والمدارس الفقهية المتبعة إلى اليوم في العالم الاسلامي ، والذي أثرَى الفقه والتشريع في الاسلام بما لا تقاومه ثروة قانونية وحقوقية في أمة من الأمم .

ولعلنا وقد بينا ان متعلق هذا التفقه ومورده ، هو الأمر المسكوت عنه والحادث بعد اقرار الأحكام المتفق عليها ، لا نحتاج إلى القول ، ان النظر فيه ينبغي أن يكون مبنيا على التيسير ودفع الجرج عن الأمة ، اعتبارا بروح الشريعة وما ورد فيها من الحض على دفع التشديد والرفق بالناس ، ولأن السكوت عن الأمر أساسا كان غير نسيان من الشارع ، وانما هو رحمة بالخلق وتوسيع عليهم ، فان كنا تشددنا في عدم فسح المجال للتطور كما يريده المتساهلون ، فاننا لابد أن نتساهل حين يكون داعيه متوفرا وحجته قائمة ، عملا بقوله ﷺ : (يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا) .

ولعلنا قد بينا الخط الذي يفصل بين ما يدخله التطور وما لا من شرع الاسلام ، ولا نظن أن الذين يطلقون الكلام في هذه القضية ، قضية الاسلام والتطور ، الا متفقين معنا فيما وصلنا إليه من نتيجة ، وما قطعناه من رأي ، والله الموفق .



هل ندع الشباب يجرب ؟

في اعصار التيارات الفكرية المتعارضة من فلسفية واجتماعية وسياسية ، وفي متاهة المعهد والكلية التي لا منار فيها للرشد ، ولا عَلَم للاهتداء ، يستهدف شبابنا لعوامل أخرى من عوامل الزيغ والضلال ، بما ينصب له من شباك تجتذبه إلى حظيرة أصحاب المذاهب المشبوهة ، ودعاة الالحاد المتسترين بشعار الفكر الحر وما إلى ذلك من وسائل المكر الخداع .

فإلى مأساة الناظور واقليم الريف على العموم الذي غزته رسل البهائية ، وبذرت فيه بذورها الوبيئة ، فمزقت أواصر المجتمع الريفي البريء، وفرقت بين المرء وزوجه. والأب وابنه ، واثارتها فتنة عمياء أدت إلى تدخل الحكومة ورفع الأمر إلى مجالس القضاء ، تأتي الآن قضية نادي الحرية الذي فتح بطنجة للدعوة إلى الالحاد ومحاربة الدين ، والذي تتكون أكثرية رواده من شباب هذه المدينة ، على حسب ما نشرته الصحافة مؤخرا .

ان مما لا شك فيه أن هناك أيديا خفية تعمل لهدم المجتمع المغربي والقضاء على مقوماته من لغة ودين وخلق ، وتتصيد الشباب بالخصوص لأنه ما يزال على الفطرة ، ولأنه الذي سيمسك زمام الأمور في الغد القريب ، فإذا اغضينا عن التعليم الذي يلقن في جميع المراحل باللغة الأجنبية ، وعن انتشار الفساد وانحلال الأخلاق ، وموقف الحكومة السلبي من ذلك ، فان محاولة تشكيك المومنين في دينهم وتحويلهم عن عقيدتهم ، مما لا يصح السكوت عليه ولا غض الطرف عنه .

ويتعلق الأمر بشرذمة المبشرين المسيحيين والوجوديين الملاحدة ومن لف لفهم ، فإن هؤلاء الدساسين لما رأوا أن مواجهة العامة بدعوتهم إلى الارتداد عن الاسلام واعتناق ما يروجون له من مذاهب كاسدة ونحل فاسدة لا تأتي بالنتيجة المطلوبة ، اتخذوا هذه الوسيلة السهلة لبلوغ مأربهم ، وهي فتح ناد لبث سموم الالحاد بين الشباب بواسطة مغاربة مأجورين ، همهم الأول هو الحصول على المال والتمتع بمغريات الحياة ، وبذلك يضربون عصفورين بحجر كما يقال ، فيجنون ثمار ما يغرسون عاجلا ، ويامنون من المتابعة ان كان هناك من يتابعهم .

والغريب في الأمر ان هناك من يقول إن الشباب يجرب ولابد أن يفيئ يوما ما . فلندعه يدرس المذاهب والأفكار ، ويطلع على الآراء والمعتقدات . فاننا لا نخاف عليه إلا إذا بقي بعيدا عن معترك الحياة !..

وأول ما يرد على هذا القول أن النزول إلى المعترك ، لا يكون بغير سلاح ، فبماذا سلحنا أبناءنا في البيت وفي دور التعليم من معلومات صحيحة عن دين الاسلام حتَّى نلقي بهم بين أيدي دعاة مخاتلين ، وندعهم يجربون ؟!

ان التجربة هنا معناها المغامرة ، وهي لا تكون بالايمان والعقيدة كيف والنبي ﷺ يقول : كل مولود يولد على الفطرة . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه . فالأب الذي يترك ولده للتجارب الدينية يكون معينا له على الخروج من الفطرة أي من دين الاسلام . والحكومة التي لا تسهر على عقيدة أبناء الشعب وتربية النشء تربية دينية متينة انما تدفع بهم إلى الكفر والالحاد والهرطقة !..

على أننا إذا تركنا الشباب يجرب ويتنقل بين المذاهب والآراء . فانما نجعل منه داعية للالحاد إذا كان يمر بتجربة الالحاد . وداعية للشك إذا كان يمر بتجربة الشك ، وقل مثل ذلك في الوجودية والشيوعية وغيرهما من الأفكار المناهضة للدين . فإذا كان معلما فويل لتلامذته مما يلقنهم من الفسوق والعصيان ، وإذا كان موظفا حاكما أو رئيسا

أو خبيرا ــ وأكثر ولاة الأمر في المغرب وغيره من البلاد الاسلامية والعربية بالخصوص ، من الشباب ــ فان عمله انما يكون مستوحى من عقيدته . وهكذا يخطط البرامج ويضع التصميمات التي تعارض سياسة بلاده وحكومته . فيفسد من حيث يقصد الاصلاح . ويهدم وهو يريد البناء . ولا يفيءُ حتّى يقضى الأمر ويسبق السيف العذل . وهذا إذا أفاء !..

واذكر ان مسؤولا في دار الاذاعة كان طلب مني أن أسجل لها أحاديث تتناول المشكلات الدينية والعقائدية التي تعرض للشباب المتعلم في المدارس الحديثة . وتحلها حلا منطقيا يتوافق ومقررات العلم قائلا : ان في ذلك انقاذاً للشباب الحائر وهداية له من الضلال . فقلت له : إن اذاعة هذه المشكلات ولو مع حلها . هو مما يزيدها انتشارا بين السامعين الغافلين عنها وعن مثلها ، وان الشباب المدرسي قلما ينصت إلى الاذاعة حتّى يقال انه سيستفيد من هذه الأحاديث . وهذا إذا عرفنا ما هي مشكلاته بالضبط . كيف وكل شاب يكاد يكون له مشكلة .

ان مشكلات الدين والعقيدة يجب أن تحل في المدرسة ، وعلى وزارة التهذيب الوطني أن تعمل على تلقين تعاليم الدين للشباب في جميع المؤسسات التربوية

سالمة من كل شبهة ، خالية من كل اشكال . بل يجب نصب استاذ لعلم الدين متضلع في مادته ، واسع الثقافة عميق التفكير . حسن السلوك والأخلاق . في كل مدرسة وفي كل معهد ثانوي أو عال . يكون بمثابة المرجع لكل مشكل ديني ، ولكل شاب يحتاج لمن يرشده في هذا الصدد .

وليس الشأن ان نكل أبناءنا إلى أساتذة ملحدين يدرسون لهم الفلسفة وعلم الطبيعة ويلقنونهم الأفكار الزائغة والنظريات الحائرة ، فإذا شكوا أو ضلوا جئنا للاذاعة نحاول أن ننقذهم .

ان في الرباط حيا جامعيا كاثوليكيا يرعاه الرهبان . وإليه يأوي أبناء المسيحيين المحافظين على دينهم وعلى حسن سلوكهم ، ويستدعى له على طول العام محاضرون ممن عرفوا بالتدين وسمو الأخلاق ليضربوا المثل بالشخص قبل الكلام لنُزَّاله من الطلبة . فهل أخذنا العبرة من ذلك واحتطنا لشبابنا الذي يأوي إلى حي جامعي ليس فيه مسجد ولو لبضعة أنفار . ولا يوجد فيه قيم يسهر على تطبيق القوانين الخلقية لا سيما وقد يندس بين الطلبة بعض المنحرفين الذين يعدون غيرهم بعدم المبالاة ، فقد قيل لي : ان كثيرا من طلبة الحي يتناولون «الدوش» وهم عراة ينظر بعضهم إلى عورة بعض من غير خجل ولا حياء .

الواقع أننا مفرّطون جدا فيما لا ينبغي التفريط فيه . ومتشبثون أكثر من اللازم بمظاهر لا تغني من الحق شيئا . فلا عجب أن يظهر فينا الالحاد وتؤسس له نواد عمومية يرتادها الشباب بكل حرية ، فما دام الحبل ملقًى على الغارب ، ولم يقبض أحد على الزمام ، فلابد أن تجمح الدابة ويضل الركب عن الطريق .

لقد أغلقت السلطة مشكورة نادي طنجة المتحدث عنه ، ولكن هل يكفي اغلاق هذا النادي لتفادي الأخطار التي كانت متوقعة منه ؟ ان خصوم الاسلام لا يهدأون ، في طنجة وفي غيرها من مدن المغرب وسائر الوطن الاسلامي ، فعلينا أن نحتاط لهم بأن لا نقدم لهم المادة الخام التي يكيفونها كما يشاءون ، وان نسلح أبناءنا بسلاح الايمان والفهم الصحيح للدين ، ليعرفوا كيف يقابلون هؤلاء اللصوص ، كلما سولت لهم شياطينهم أن يسلبوهم أثمن جوهرة يحلون بها أنفسهم .. وهي العقيدة .

❋

الدعوة إلى الاسلام

الدعوة إلى الاسلام واجب أكيد ، على المسلمين أن يضطلعوا به ، ليعرفوا غيرهم من الأمم بمحاسن هذا الدين ، وينقذوهم من ظلمة الشك والحيرة والضلال . ولكن قبل القيام بالدعوة ، يجب عليهم أن يهتدوا بهديه ، ويسيروا على نهجه ، ويطبقوا تعاليمه في اعمالهم اليومية ، وحياتهم الفردية والجماعية ، ولا يعطوا اسوأ الأمثلة بمخالفتهم لأحكامه ، ونهجهم سبيلا غير سبيله في السلوك والمعاملة ، فيكذبوا أنفسهم ويكونوا ضدا على الدعوة .

وكذلك فعل النبي ﷺ فانه انما وجه الدعوة إلى الخارج ، بعد صلح الحديبية ، لما تمهد أمر الاسلام ، وتقررت أصوله وفروعه ، وظهر العمل به في المدينة المنورة وأنحاء كثيرة من بلاد العرب ، فكتب إلى كسرَى وقيصر فمن دونهما من الملوك والأمراء ، يدعوهم إلى

الدخول في الاسلام ، وضمن كتابه الآية الكريمة «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءبيننا وبينكم ، أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون» .

وأرسل النبي ﷺ والخلفاء الراشدون بعده البعوث والجيوش المقاتلة إلى البلدان المتاخمة لأرض الحجاز ، داعية إلى الاسلام ، محاربة في سبيل إعلاء كلمة الله ، فكان أول ما تعرض على أهلها النُّطْق بكلمة التوحيد والدخول في الاسلام ، فان أبت فاعطاء الجزية ، فان أبت فالحرب . وقلما أجاب بلد من البلدان إلى الاسلام أو إلى الجزية ، من أول وهلة ، وانما هي الحرب في غالب الأحوال . وهكذا فتحت الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان .

ومن الثابت تاريخيا أن أحدا من أهل هذه البلدان لم يحمل على الاسلام حملا ، وأن من كان يسلم منهم بعد الفتح وفرض الجزية ، عدد قليل جدا . ولكن كيف أصبحت هذه البلدان كلها أرض اسلام ، وأهلها من المسلمين الذين يتجندون في سبيله والدفاع عنه ، وينشرونه في أقصَى المغرب والمشرق ، ولم يمر على زمن الفتح الا بضع سنين؟ ذلك هو السر الذي تنبغي معرفته ، والذي غاب عن كثير من الباحثين حتّى صاروا

يعتقدون أن الاسلام انما انتشر بالسيف ، ومنهم بعض المسلمين مع الأسف .

في خبر صغير أورده البلاذري في كتابه فتوح البلدان ، ما يكشف لنا عن هذا السر الخطير ، وهو هذا بالنص والحرف ، قال :

وحدثني أبو حفص الدمشقي قال حدثني سعيد بن عبد العزيز ، قال بلغني انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم إليهم ، بوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم ، فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا ان نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارَى واليهود ، وقالوا ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد .

فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المُقَلِّسين[1] ، فلعبوا وأدوا الخراج .

---

(1) المغنين والضاربين بالدف فرحا وابتهاجا .

هذا الانطباع الذي تركه المسلمون في نفوس السكان من نصارَى ويهود ، وحرب الفتوح ما تزال قائمة ، هو الذي جعل أهل تلك البلدان ، يدخلون في دين الله أفواجا ، وجعل أرضهم تتحول شيئا فشيئا من دار حرب إلى دار اسلام .. فما إن استقرت الأحوال بالمسلمين ورأَى الناس استقامة أمورهم وعدلهم وانصافهم ، وصحة عقيدة الاسلام وسمو مبادئه وتعاليمه ، حتَّى عرفوا الحق وانكروا الباطل ، وأقبلوا على الدين الحنيف يعتنقونه في حماس شديد ، وينتصرون له ، ويرتسمون في جنده المدافع عنه والمحارب من أجله .

وراع ولاة الأقاليم تهافت السكان على الدخول في الاسلام ، ونقصان الجزية التي يدفعها غير المسلمين ، فكتبوا إلى الخليفة يعلمونه بالأمر ، ويستشيرونه في منع الناس من الاسلام توفيرا للجزية ، فكان جواب الخليفة ، وهو عمر بن عبد العزيز : ان الله بعث محمدا هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، فدعوا الناس وما هداهم الله إليه من الايمان ، ولو لم تحصلوا درهما واحدا .

ان العدل والاستقامة والسيرة المثلَى التي كان عليها المسلمون ، هي التي رغبت سكان البلدان المفتوحة في الاسلام ، بالاضافة إلى يسر هذا الدين وسماحته ، وتوفيقه بين مطالب الروح والجسد ، فطبيعة الاسلام

كدين منسجم مع العقل والفطرة الانسانية ، وحرص أهله على تبليغ رسالته بالتطبيق والعمل ، هما اللذان كان لهما أعظم الأثر في انتشاره بتلك السرعة المدهشة ، وبين أكبر عدد من الشعوب والأمم ثبت في التاريخ أنه اعتنق جماعيا ، دينا سماويا بدون ضغط ولا اكراه ، بعدما كان على أديان كبيرة ، منها ما له أصل سماوي كذلك .

على أن الأمر ، وان لم يكن له شاهد من التاريخ ، فان العقل يستبعد جدا ان تكون القوة هي التي دفعت هذه الأمم والشعوب بكاملها إلى اعتناق الاسلام ، ونبذ الاديان التي كانت تعتقدها من يهودية ونصرانية ومجوسية وغيرها ، وهي أديان لها أصل أصيل من وحي السماء أو فلسفة العقل البشري . !

ولا نشك في أن ما حصل هو من معجزات الاسلام التي أقام الله بها الحجة على العباد في مختلف الأزمنة والأمكنة ، فان اكتساح الاسلام لهذه الأديان في مواطنها وبطريق الاقتناع ، لهو أعظم دليل على صدق رسالته وعمومها ونسخها للرسالات السابقة ، وهو في الوقت نفسه دعوة لاتباع هذه الاديان في جميع أنحاء الأرض إلى التفكير الجدي في قضية الايمان والبحث عن العقيدة الصحيحة ، ليخلصوا أنفسهم من الشك والحيرة ، ويهتدوا إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، كما فعل

أسلافهم من قبل ، فانهم ليسوا بأهدَى منهم ولا أكثر تمسكا بما وجدوا عليه آباءهم .

كما أن هذا الحاصل هو مما يقيم الحجة على المسلمين في العصور المتأخرة ، وفي العصر الحاضر بالخصوص ، فانهم بانحرافهم عن الجادة . وتعطيلهم لأحكام الشرع الاسلامي ، وفشو البدع والاهواء فيهم ، حتَّى أصبحت هي الاطار العام للدين ؛ قد دمغوا الاسلام بما ينفر الأجانب منه . وحجبوا محاسنه عن الناس ، ففتحوا باب القيل والقال فيه للخصوم ، وأتاحوا الفرصة للمبشرين المسيحيين في افريقيا وآسيا لنشر المسيحية بين الشعوب الوثنية بل بين جهلة المسلمين أنفسهم ، ضاربين الأمثال لهم بما عليه المسلمون من التأخر والانحطاط ، وما عليه المسيحيون من الرقي والتقدم .

ومادام المسلمون على هذه الحال ، فان كل دعوة إلى الاسلام لا تصيب النجاح المطلوب ، ولا يمكن أن تكون نتائجها مثل النتائج الباهرة التي حصلت في العصور الأولى للاسلام ، حين كانت الدعوة بالقدوة والعمل ، أكثر منها بالقول والكلام .

حقا ان كثيرا من الأجانب يدخلون في الاسلام . على فترات متلاحقة ، ولكنهم على كل حال قلة ، ومن

الدارسين الذين يبحثون عن الحقيقة حتَّى يهتدوا إليها . وليس كل الناس باستطاعتهم ذلك .

وفي الشعوب الوثنية بافريقيا وآسيا ، يسلم أيضا كثير من الناس ، بدعوة من بعض المسلمين الذين انتدبوا لذلك ، وبالمقارنة بين حالهم المزرية وحال المسلمين التي هي كيفما كان الأمر ، أحسن مما هم عليه .

والدعوة كان من الممكن أن تقوم بدورها في نشر الاسلام على نطاق واسع جدا ، في البلاد الراقية من قارتي أوروبا وامريكا ، وفي اليابان وغيرها ، لو ان المسلمين كانوا ملتزمين بالاسلام مثل سلفهم الصالح ، متحلين بأخلاقه الفاضلة ، مقيمين لشريعته السمحة ، مؤدين لعباداته وشعائره على وجهها ، غير مكتفين منها بالمظاهر التي لا تنهى عن فحشاء ولا منكر ، متحققين بعقيدة التوحيد كما جاء بها الاسلام ، بريئة من الشرك الظاهر والخفي ، بعيدة عن تهويمات الدروشة والشعوذة التي أذلت المسلمين وجعلتهم لعبة في أيدي الدجاجلة ، وأصحاب الدعاوى الباطلة .

ولا يضر المسلمين أنهم ليسوا أصحاب علوم وتقنيات ، فان أسلافهم كانوا كذلك ، وكانت الشعوب والأمم التي دخلت في دينهم أرقَى منهم في هذا المجال ، بل لا نسبة بينها وبينهم في ذلك ، ومع هذا القوا إليهم

بالمقاليد ، وتتلمذوا لهم في الناحية الروحية ، ولقنوهم ما عندهم من معارف وفنون .

ومن غير شك أن عودة المسلمين إلى الدين الصحيح وتمسكهم بهدَى نبيهم وسيرة سلفهم ، سيحيل ما بهم من ضعف إلى قوة ، ومن جهل إلى علم ، ومن تأخر إلى تقدم ، وبذلك يكسبون المعركتين معا معركة مقاومة التخلف ، ومعركة الدعوة إلى الاسلام .

والمهم هو تقرير ان الدعوة وحدها لا تكفي ، ما دام المسلمون بواقع حالهم ضدا على الاسلام ، فانهم إذا أدعوا أنه دين التوحيد ، كذبهم ما يتعلقون به من أحجار وأشجار ورمم ، ناقضين بذلك عقد التوحيد ، مشركين مع الله غيره ، غير مخالفين لعباد الاصنام الا بالادعاء ، وإذا قالوا ان عباداته تهذب النفوس وتزكي الأرواح وتنعكس آثارها على السلوك والأخلاق ، لم يصدق قولهم مع تفشي الرذائل في المجتمعات الاسلامية على ما هو مشاهد ، وإذا وصفوا شريعته بانها أسمَى الشرائع ، وانها تحقق العدالة الاجتماعية على أكمل وجه ، وتصون حقوق الافراد والجماعات بقوانين لا تطال في العدل والانصاف ، لم يطابق الوصف ما يتخبط فيه المسلمون من فقر ومرض وجهل وظلم ، وإذا تحدثوا بانه دين العزة والكرامة والوحدة والقوة والمنعة ، كان حاضر المسلمين

وما هم عليه من ذلة وهوان وفرقة واختلاف وخضوع للحكم الأجنبي لا يتوافق وما يتحدثون به .

والخلاصة أن المسلمين بتنكرهم لدينهم وعدم تمسكهم بتعاليمه ، يحولون ، بينه وبين الناس ، ويقفون في وجه الدعوة إليه فلا توتي الا قليلا من النتيجة ، ولذلك قال الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه «ان الاسلام محجوب بالمسلمين» ولعلهم بحالهم هذه قد صاروا ممن تشملهم الآية الكريمة التي تقول «ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله» فأنّى توجهت بنظرك تجد حجابا كثيفا مسدولا على محاسن الاسلام من انحراف المسلمين .

والمسلمون بذلك يعرقلون الدعوة ويتحملون اثما كبيرا في الصد عن سبيل الله .. فقد جاء في حديث المعراج أن النبي ﷺ أتى على خشبة في الطريق لا يمر بها ثوب الا شقته ، ولا شيء إلا خرقته — وذلك فيما رأى من آيات الله ليلة المعراج — فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا مثل أقوام يقعدون على الطريق فيقطعونه ، ثم تلا «ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله» وبالعكس لو كان المسلمون على هدى من ربهم ، وإقامة لما جاء به نبيهم ، وتمثل لقيم الاسلام العليا ، وعمل برسالته الخالدة ، لكان كل واحد منهم داعيا إلى الله .

ومبشرا بكلمته الحق ، ومستحقا للثواب الجزيل الذي جعله الله للدعاة الهداة ، على ما جاء في الحديث الصحيح (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت عليه الشمس) .

ولسنا نقلل من فائدة الدعوة ، أو نصرف الداعين عن مهمتهم المقدسة ، وانما نريد أن يكون للدعوة مفعولها وتأثيرها العظيم في الدلالة على الله والتبشير بدينه ، وذلك باستقامة المسلمين على الطريقة ، واعطاء المثل الصالح من أنفسهم على هداية الاسلام ، وبالأحرى نريد أن ندعو المسلمين أولا إلى الاسلام والتمسك بعروته الوثقَى ، ثم نتوجه بعد ذلك إلى دعوة غير المسلمين فان النتيجة حينئذ ستكون أعظم من كل تقدير ، وكما كانت في البدء عند ظهور الاسلام .

❋

الفهرس

*

كتب للمؤلف

ظهر للمؤلف الكتب الآتية :

أولا : في الدراسات الأدبية والتاريخية :

النبوغ المغربي في الأدب العربي : ثلاث أجزاء طبعة ثالثة بيروت . وهو مترجم إلى الاسبانية والانكليزية

ذكريات مشاهير رجال المغرب ط. ثانية بيروت سلسلة صدر منها 40 حلقة

أحاديث عن الأدب المغربي الحديث طبعة ثانية دار الثقافة

شرح **الشمقمقية** ط. خامسة

شرح **مقصورة المكودي** ط. مصر

المنتخب من شعر ابن زاكور ط. ثانية دار المعارف

امراؤنا الشعراء ط. المغرب

التعاشيب ط. المغرب

واحة **الفكر** ط. المغرب

خل وبقل ط. المغرب

العصف والريحان ط. المغرب

سابق البربري ط. دمشق
لقمان الحكيم ط. ثانية دار المعارف
لوحات شعرية ط. المغرب
من أدبنا الشعبي ط. المغرب
أربع خزائن لأربعة علماء من المغرب ط. مصر
مدخل إلى تاريخ المغرب ط. ثالثة المغرب
أدب الفقهاء ط. بيروت
نظرة في منجد الأدب والعلوم ط. مصر
أزهار برية ط. المغرب
ايقاعات الهموم ـ ديوان شعر ط. المغرب

ثانيا :في الدعوة والدراسات الاسلامية :

تفسير سور المفصل من القرآن الكريم ط. المغرب
فضيحة المبشرين ط. المغرب
مفاهيم اسلامية ط. بيروت
محاذي الزقاقية ط. ثانية المغرب وهو مترجم إلى الفرنسية
القدوة السامية للناشئة الاسلامية ط. ثانية بيروت
اسلام رائد ط. ثالثة .مصر
الإسلام أهدى ط. ثانية المغرب
جولات في الفكر الاسلامي ط. المغرب
تحركات اسلامية ط. المغرب
معارك ط. المغرب
شؤون اسلامية ط. المغرب
منطلقات اسلامية ط. المغرب

ثالثا : نشــر وتحقيق :

رسائل سعدية ط. المغرب
ديوان ملك غرناطة ط. ثانية مصر
عجالة المبتدي في الانساب للحازمي ط. ثانية مجمع اللغة العربية
ترتيب أحاديث الشهاب للقاضي عياض ط. المغرب
تلقين الوليد الصغير لعبد الحق الاشبيلي ط. المغرب
قواعد الاسلام للقاضي عياض ط. المغرب
شرح الأربعين الطبية لعبد اللطيف البغدادي ط. ثانية المغرب
الأنوار السنية في الألفاظ السنية لابن جزي ط. المغرب
رسالة نصرة القبض للمسناوي ط. المغرب
شرح ميارة على الجمل ط. المغرب
التيسير في صناعة التسفير للاشبيلي ط. مدريد
مناهل الصفا للفشتالي ط. المغرب

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء